سُورَةُ الفَاتِحَة

مِنْهَاجُ الحَيَاةِ للفَرْدِ والأُمَّة

أمِير سعِيد

الغرباء
guraba

سُورَةُ الفَاتِحَة

منهاجُ الحياةِ للفردِ والأُمَّة

أَمير سعيد

الغرباء
guraba



ISBN: 978-625-8434-11-8

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م


GURABA YAYINCILIK TİC. LTD. ŞTİ.

الدار الأثرية للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


Başakşehir Mh. Sabahattin Zaim Cad.
Life Park Evleri No: 8/G
Başakşehir/ İstanbul

 مكتبة الغرباء | (+90) 212 526 06 05 
 @guraba_arabic | (+90) 536 065 04 04 
 @guraba_arabic | guraba@hotmail.com 
 @Guraba_Arabic | www.alguraba.com 

فضلُ سورَةِ الفاتحَةِ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ.

وبعدُ: فلقدْ استهلَّ اللهُ ﷻ كتابَهُ العزيزَ؛ بأَعظمِ سورَةٍ أَنزلها علىٰ نبيِّهِ ﷺ وأَمرنا بأَنْ نتلوها في كلِّ صلاةٍ؛ بل أَسماها هي نفسها: الصَّلاةَ، لمَا تحويهِ من دعاءٍ جامعٍ.

عن أَبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ:

«قالَ اللهُ تعالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإِذا قالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قالَ اللهُ تعالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإِذا قالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قالَ اللهُ تعالَىٰ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وإِذا قالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **قالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وقالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فإِذا قالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قالَ: هذا بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإِذا قالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **قالَ: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ»** [مسلم: ٣٩٥/ ٣٩].

وفي روايةٍ: **«قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ؛ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي»** [مسلم: ٣٩٥/ ٤٠].

❁ ولعظيمِ شأنها لم تصحَّ الصَّلاةُ بدونها، كما قال ﷺ: «**لَا صَلَاةَ لِمَن لَمْ يَقْرَأْ بفَاتِحَةِ الكِتَابِ**» [البخاري: ٧٥٦].

❁ وهي أَعظمُ سورةٍ والسَّبعُ المثاني.

قال ﷺ لأَبي سعيدٍ بنِ المُعلىٰ رضي الله عنه: «**أَلا أُعلِّمُك أَعظمَ سُورةٍ في القرآنِ قبلَ أَنْ تخرجَ من المسجدِ، قالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السَّبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الَّذي أُوتيتُهُ**» [البخاري: ٥٠٠٦].

❁ وهي سورةٌ لا نظيرَ لها في كتبِ اللهِ المنزلةِ.

يقولُ ﷺ: «**والَّذِي نَفسِي بيَدِهِ! ما أُنزلَتْ سُورَةٌ في التَّوراةِ ولا في الإِنجيلِ ولا في الزَّبورِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُها ، وإِنَّها لَهي السَّبعُ المَثاني والقُرآنُ العَظيمُ**»[1].

ولرفعةِ شأْنِ هذِهِ السُّورةِ الجامعةِ، انفردتْ بحفاوةٍ سماويةٍ لم يحدثْ مثلها عندَ نزولِ آيِ القرآنِ.

فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: بيْنَما جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِن فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقالَ:

«**هذا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليومَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا اليومَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقالَ: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إِلى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليومَ، فَسَلَّمَ، وَقالَ: أَبْشِرْ بنُورَيْنِ أُوتِيتَهُما لَمْ يُؤْتَهُما نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ،**

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥) وصححه الألباني «مشكاة المصابيح» (٢١٤٢).

وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بحَرْفٍ منهما إِلَّا أُعْطِيتَهُ» [مسلم: ٨٠٦].

وعِظَمُ هذهِ السُّورةِ وجلالُها إِنَّما أَتىٰ من إِجمالها لمعاني الدِّين كلِّهِ وأُصولِهِ، فإِذا كان يتعينُ أَن يكونَ لكلِّ مسارٍ عظيمٍ، ومشروعٍ كبيرٍ، خطَّتُهُ ومعالمُهُ الواضحاتُ؛ فإِنَّ في هذِهِ الآياتِ القصيراتِ مناراتٌ لطريقِ السَّالكينَ إِلىٰ جنَّةِ ربِّ العالمين، وفيها يجدُ المسلمُ الطَّريقَ واضحًا، برزتْ فيهِ منائرُهُ، وظهَرَ فيهِ مُنتهاهُ وهدفهُ الأَسمىٰ، واتضحتْ الوسيلةُ ناصعةً؛ بل إِنَّهُ بها يغدو طريقًا معبدًا للمسلمين جميعًا يجدونَ فيهِ ضالتَهُم، وهُم حيارىٰ قدْ تراجعتْ أَحوالُهم، وتأَخروا عن موقعهم المكينِ كخيرِ أُمَّةٍ أُخرجتْ للنَّاسِ.

لا عجبَ أَنَّ الحاجةَ لتدبرِ معاني هذِهِ السُّورةِ الفريدَةِ كبيرٌ ومُلِحٌّ، لاسيما حينما يغرقُ كثيرٌ من المسلمين في بحورِ الغفلةِ، حتَّىٰ وهم يتلونَ الفاتحةَ وغيرَها من دونِ أَنْ يُسْتلْهَموا معانيها، ويتدبَروا آياتِها، وما فيها من تجريدِ التَّوحيدِ للهِ وخُلوصِ القلبِ لهُ والإِيمانِ بالآخرةِ، واستبصارٍ لطريقِ الأَنبياءِ والصَّالحينَ، وتحذيرٍ من سلوكِ طريقِ غيرِ المؤمنينَ، الَّذي انساقَ كثيرٌ من المسلمينَ في تقليدٍ ومحاكاةٍ لسالكيهِ، علىٰ نحوٍ يُبرهِنُ علىٰ أَنَّ ما يتلونَهُ لا يتدبَّرونَهُ أَو يفهمونَ مقاصدَهُ ومراميهِ؛ إِذ لو أَنَّ الأُمَّةَ - كلُّ الأُمَّةِ - سارتْ في هذا الصِّراطِ الفسيحِ، صراطِ الَّذينَ أَنعمَ اللهُ عليهم، غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالينَ؛ لاستحقتْ خيريَّتها وريادتها:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إنَّ سورةَ الفاتحةِ، ما فُرضتْ علىٰ هذا النحو في كلِّ صلاةٍ إلَّا لأنَّها كافيةٌ وافيةٌ، تُبقي الاعتقادَ الإيماني متقدًا دائمًا في قلبِ كلِّ مؤمنٍ يتدبرُ آياتِ القرآنِ، معترفًا دومًا بذلِّهِ وخضوعِهِ للهِ، محبًّا لهُ، متوكلًا عليهِ، مستعينًا بهِ ﷻ في طريقهِ إلىٰ جنَّاتِ العُلا.

(ففي الفاتحةِ عشرةُ أشياءَ؛ خمسةٌ من صفاتِ الرُّبوبيَّةِ: اللهُ، الرَّبُ، الرَّحمنُ، الرَّحيمُ، المالكُ. وخمسةٌ من صفاتِ العُبوديَّةِ: العبادَةُ، الاستعانةُ، طلبُ الهدايةِ، طلبُ الاستقامةِ، طلبُ النِّعمَةِ في قولِهِ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وكأَنَّهُ قيلَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ لأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يا رَبُّ! اهْدِنا يا رحمَنُ، وارزقنا الاستقامَةَ يا رحيمُ، وأَفضْ علينا سِجالَ فضلِكَ يا مالكُ!)[1].

يقولُ وليُّ الدِّينِ الدَّهلويُّ ﵀: (وإذا تعينَ الوقتُ[2] فلا أَحقَّ من الفاتحةِ؛ لأَنَّها دعاءٌ جامعٌ أَنزلَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ أَلسِنَةِ عبادِهِ؛ يُعَلِّمهم كيفَ يحمدونَ اللهَ ويثنونَ عليهِ، ويُقرُّونَ لهُ بتوحيدِ العبادَةِ والاستعانَةِ، وكيفَ يسأَلونَهُ الطريقَةَ الجامعَةَ لأَنواعِ الخيرِ،

(١) «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»: للنيسابوري (١/ ١٢٤).

(٢) أَي في الصَّلاة، فموضعها وتوقيتها في الصَّلاةِ أَيضًا مُعْجِزٌ.

ويتعوذونَ بهِ من طريقةِ المغضوبِ عليهم والضَّالينَ، وأَحسنَ الدُّعاءِ وأَجمعَهُ)[١].

فهيَ بحقٍّ جامعةٌ لأُصولِ الدِّينِ (متضمنةٌ لجميعِ معاني كُتُبِ اللهِ المشتملةِ علىٰ ذكرِ أُصولِ أَسماءِ الرَّب تعالىٰ، ومجامعها: وهي أَسماءُ اللهِ، والرَّبِّ، والرَّحمنِ، وإِثباتِ المعادِ، وذكرِ التَّوحيدينِ: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ، وتوحيدُ الإِلهيَّةِ، وذكرِ الافتقارِ إِلى الرَّبِّ ﷻ في طلبِ الإِعانَةِ وطلبِ الهدايةِ، وتخصيصِهِ ﷻ بذلك، وذكرِ أَفضلِ الدُّعاءِ علىٰ الإِطلاقِ، وأَنفعهِ وأَفرضِهِ، وما العبادُ أَحوجُ شيْءٍ إِليهِ؛ وهو الهدايةُ إِلىٰ صراطِهِ المستقيمِ المتضمنِ كمالَ معرفتِهِ وتوحيدِهِ وعبادتِهِ؛ بفعلِ ما أَمرَ بهِ، واجتنابِ ما نهىٰ عنهُ، والاستقامةِ عليهِ إِلىٰ المماتِ، ويتضمنُ ذكرَ أَصنافِ الخلائقِ وانقسامهِم إِلىٰ مُنْعَمٍ عليهِ بمعرفَةِ الحقِّ والعملِ بهِ ومحبتِهِ وإِيثارِهِ، ومغضوبٍ عليهِ بعدولِهِ عن الحقِّ بعدَ معرفتِهِ لهُ، وضالٍ بعدمِ معرفتِهِ لَهُ)[٢].



(١) «حجة الله البالغة» لِلإمام ولي الله الدهلوي: (٢/ ٩).

(٢) «زاد المعاد»: (٤/ ١٦٢).

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

هي لفظٌ قرآنيٌّ؛ لأنَّها جزءُ آيةٍ من قولهِ تعالىٰ:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ [النمل].

❁ ومقصودٌ بِهِ عدَّةُ معانٍ:

الأَوَّلُ: التِّماسُ البركةِ من اللهِ ﷻ يقولُ اللهُ تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. والبركاتُ هي الخيراتُ النَّاميةُ[١]؛ فحينَ نقولُ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ في بدايةِ الأَعمالِ؛ فإِنَّنا نطلبُ أَنْ تحلَّ عليها بركَةُ اسمِ اللهِ تعالىٰ.

الثَّاني: الاستعانةُ باللهِ ﷻ والباءُ في ﴿بِسۡمِ﴾ تأْتي أَحيانًا في اللُّغةِ للاستعانَةِ (فالتَّقديرُ: بإِعانةِ اسمِ اللهِ اشرعوا في الطَّاعاتِ)[٢]، (وهذا تعليمٌ من اللهِ تعالىٰ لعبادِهِ، ليذكرُوا اسمَ اللهِ تعالىٰ عندَ افتتاحِ القراءَةِ وغيرِها؛ حتَّىٰ يكونَ الافتتاحُ ببركةِ اسمِ اللهِ تعالىٰ)[٣].

الثَّالثُ: أَنَّ ما يليها هو من عندِ اللهِ وليسَ من قولِ البشرِ؛ سواءً

(١) «التحرير والتنوير»: (١٣/ ٩٠).

(٢) «التفسير الكبير» للرازي: (١/ ١٨٠).

(٣) «تفسير السمرقندي»: (١/ ١٣).

أَكانَ رسُولُ اللهِ ﷺ المبلغ عن رَبِّهِ، أَو التَّالينَ من بعدِهِ، وهذا معلومٌ منذُ أَوَّلِ آيةٍ نزلتْ، وهي قولُهُ تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

فمعنىٰ البسملَةِ: اقرأْ يا محمدُ! هذِهِ السُّورةَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» علىٰ عبادِهِ. أَي اقرأْها علىٰ أَنَّها منهُ تعالىٰ لا منكَ؛ فإِنَّهُ برحمتِهِ بهم أَنزلها عليكَ لتهديهُم بها إِلىٰ ما فيهِ الخيرُ لهُم في الدُّنيا والآخرةِ؛ أَي أَنَّني بالبسملَةِ أَقرأُ السُّورةَ عليكم أَيُّها النَّاسُ باسمِ اللهِ لا باسْمِي، وعلىٰ أَنَّها منهُ لا مني، فإِنَّما أَنا مبلغٌ عنهُ ﷻ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢][1].

فالبسملةُ تعني فيما تقدَّمَ: الابتداءُ استعانَةً باللهِ ﷻ والتِماسُ البركَةِ منهُ، ونسبةِ ما يتلوها للهِ ﷻ.

❁ لماذا قالَ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ ولمْ يَقُلْ: «باللهِ»؟:

تعني الاستعانةُ والتبركُ بجميعِ أَسماءِ اللهِ الحُسنىٰ؛ لأَنَّ المفردَ المضافَ يُفيدُ العمومَ، كقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨]. أَي: جميعَ نِعَمِ اللهِ؛ لأَنَّ ﴿نِعۡمَةَ﴾ مفردٌ مضافٌ إِلىٰ اسمِ الجلالةِ.

يقولُ الرَّاغبُ الأَصفهانيُّ: (وأَلفاظُ الاستعانةِ نحوَ «أَستعينُ باللهِ» و«اللَّهُمَّ أَعني» ونحوَ ذلكَ كثيرٌ، فصارَ لفظُ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) «تفسير المنار»: (١/ ٣٧).

مستغني بهِ عن جميعها وقائمًا مقامها، ولو قال: «باللهِ» لكانَ يقتضي الاستعانةَ بهذِهِ اللفظةِ فقط)[١].

أي أَنَّ كلمةَ «اسمٍ» أَضافتْ مجالًا أَرحبَ للاستعانةِ والتَّبركِ بأَسماءِ اللهِ الحُسنىٰ، وبأَلفاظِ الاستعانةِ والتَّبركِ كلِّها أَيًّا كانتْ.

❁ البسملةُ أَدبٌ إِسلاميٌّ ونهجٌ نبويٌّ:

وبهذا المعنىٰ المتقدِّمِ؛ فإِنَّ مقامَ البسملةِ عظيمٌ، كونها إِذْ يبدأُ بها أَيُّ عملٍ؛ فإِنَّ صاحبَهُ يلتمسُ البركةَ والعونَ من اللهِ ﷻ ويعملُ علىٰ أَلا يخالفَ شرعَهُ وأَوامرَهُ تاليًا؛ ولهذا صارَ بدءُ الأَعمالِ بالبسملَةِ أَدبًا والتزامًا إِسلاميًّا انتهجَهُ الأَنبياءُ من قبلُ، وسارَ عليهِ النَّبيُّ ﷺ من بعدُ «فأَكثرُ الأَنبياءِ أَوجبوا علىٰ أَنفسهم الابتداءَ بذكرِ اللهِ؛ قال نوحٌ عندَ ركوبِ السَّفينَةِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]. وكتبَ سليمانُ إِلىٰ بلقيسَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ من قولِ بلقيسَ قبلَ فتحِ الكتابِ، فلمَّا فتحتِ الكتابَ قرأَتِ التَّسميَةَ، فقالتْ: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولـمَّا ثبتَ الابتداءُ بالتَّسميَةِ في حقِّهِم، ثبتَ في حقِّ نبيِّنا أَيضًا:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠])[٢].

---

(١) «تفسير الأصفهاني» (١/ ٤٧).

(٢) «تفسير النيسابوري»: (١/ ٨٨).

والتَّسميةُ أَو البسملةُ؛ مشروعةٌ ومندوبةٌ لكلِّ أَمرٍ مُهِمٍّ، سواءً أَكانَ من المباحاتِ أَو العباداتِ وغيرِها، فقدْ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«**كلُّ أَمْرٍ ذِي بالٍ لا يُبْدَأُ فيهِ ببسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم؛ فَهوَ أَقطعُ**»[(١)]. وقدْ (اتَّفقَ أَكثرُ الفقهاءِ علىٰ أَنَّ التَّسميةَ مشروعةٌ لكلِّ أَمرٍ ذي بالٍ، عبادَةً أَو غيرِها)[(٢)].

❁ ولهذا كانتِ التَّسميةُ مصاحِبَةً لكلِّ الأَعمالِ المُهِمَّةِ:

عندَ النَّومِ، وفي أَذكارِ الصَّباحِ والمساءِ، وعندَ المقامِ، وعندَ استلامِ الولدِ، وعندَ الدَّفنِ، وعندَ الأَكلِ والشُّربِ، والأَخذِ والعطاءِ، وعندَ الخروجِ والدُّخولِ للمنزلِ، وعندَ الذَّبحِ، وعندَ الوضوءِ، وعندَ الجماعِ، وعندَ وضعِ الميتِ في القبرِ، وعندَ ركوبِ الدَّابةِ، وعندَ الوقوعِ من الدَّابةِ، وعندَ المرضِ، وعندَ دخولِ الخلاءِ، وكلُّ ذلكَ قدْ وردَتْ فيهِ أَدلَّةٌ شرعيَّةٌ.

ومن هُنا؛ يتضحُ أَنَّ للتَّسميَةِ أَهميةً كبيرةً في حياةِ المسلمِ، فهو

---

(١) قال الإمامُ النَّوويُّ في «الأذكار»: جيد الإسناد (١/ ٩٤) وضعفه الألباني في «إرواء الغليل» (١/ ٣٠) برقم (٢) لأن في سنده قرة بن عبد الرحمن، وقد ضعفه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائي، مع ما فيه من اضطراب في متن الحديث؛ فهو تارة يقول: أَقطع. وتارة يقول: أَبتر. وتارة: أَجذم. وتارة: يذكر الحمد، وتارة يقول: بذكر الله، وكذلك فيه اضطراب الرواة على الزهري، والحديث معناه مقبول ومعمول به.

(٢) «الموسوعة الفقهية»: (٨/ ٩٢).

إِذْ يتلُو القرآنَ يَستهِلُّ بها إِعلانًا بأَنَّ ما يليها هو من عندِ اللهِ، وأَنَّ الأَحكامَ الصَّادرَةَ في تلكَ التِّلاوَةِ هو صادرٌ باسمِ اللهِ ﷻ لا غيرِه، (وهذا الاستعمالُ معروفٌ مأْلوفٌ في كلِّ اللُّغاتِ، وأَقرَبُهُ ما يُقالُ باسمِ السُّلطانِ ونحوِهِ)(١).

وهي إِذْ يُبدأُ بها الطَّعامُ؛ فإِنَّما يُلتمسُ من ذكرِها البركةُ، وهي وإِنْ استهلتْ عملًا ما، ارتُجِيَ من ذكرِها الاستعانةُ باللهِ ﷻ والتَّبركُ باسمهِ تعالىٰ. وهيَ -أَيضًا- حافظةٌ للمرءِ أَنَّ يبدأَ بها مُحَرَّمٌ؛ فذكرُها قبلَ الشُّروعِ في عملٍ مُحَرَّمٍ، هُو بحدِّ ذاتهِ حرامٌ، وذكرها مخجلٌ للمرءِ أَنْ يقدُمَ علىٰ عملٍ مُحَرَّمٍ؛ ولذا كانَتْ رادعًا يمنعُ صاحِبها من ارتكابِ المحرماتِ.

وهي وصيةُ رسُولِ اللهِ ﷺ لأَصحابهِ الكرامِ وجنودِهِ في الحديبيةِ بقولِهِ: «**امْضُوا عَلَىٰ اسْمِ اللهِ**»(٢)، ووصيةُ خلفائهِ من بعدِهِ لقادةِ جنودِهم كانوا يعنونَ بها التزامًا بحربٍ لا تنتهكُ فيها الحُرُماتِ، كما قال أَبو بكرٍ الصِّديقُ وعمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنهما في وصاياهما لقادتهما: «**اندفعوا باسمِ اللهِ**»(٣)، «**امضوا باسمِ اللهِ، علىٰ عونِ اللهِ، وبتأْييدٍ من اللهِ**».

(١) ينظر: «تفسير المنار»: (١/ ٣٦-٣٧) نقلًا عن الشيخ محمد عبده.

(٢) رواه البخاري في المغازي: الحديبية.

(٣) «الجامع الكبير» للسيوطي: مسند أبي بكر ص ١٧٥.

فهذِهِ الكلمةُ العظيمةُ؛ تعني أَنَّ ما يليها من أَفعالِ قائلها أَنَّهُ ملتزِمٌ بأَوامِرِ اللهِ ﷻ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ. وهو طلبٌ من اللهِ العونَ في تلكَ الشَّدائدِ والملاحمِ.

وفي سورةِ الفاتحةِ «البسملةُ» ابتداءٌ يستهلُّ بِهِ كتابُ اللهِ، يُنبئُ بأَنَّ ما يتلوها كلُّهُ ماضٍ باسمِ اللهِ، وصادرٌ عنهُ ﷻ وهي استمطارٌ من العبدِ للبركةِ والعونِ من اللهِ ﷻ في مبدأِ دعائِهِ.

وأَمَّا لفظُ الجلالَةِ: ﴿ٱللَّهِ﴾ فهو الاسمُ الدَّالُّ علىٰ الذَّاتِ العظيمَةِ الجامعَةِ لصفاتِ الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ؛ فهو اسمٌ لَهُ وحدَهُ لا يتعلقُ بهِ أَحدٌ سواهُ، ولا يُطلقُ علىٰ غيرِهِ ﷻ ولا يدعيهِ أَحدٌ من خلقهِ[1].

وهو اسمٌ موضوعٌ ليسَ لَهُ اشتقاقٌ، وهو أَجلُّ من أَنْ يُذكرَ لَهُ الاشتقاقُ، وهو اللهُ لأَنَّ الخلقَ يولهونَ[2] إِليهِ في قضاءِ حوائجِهم، ويتضرعونَ إِليهِ عندَ شدائدِهم.

وقيل أَيضًا: إِنَّهُ اشتُقَّ من الارتفاعِ. وقيل أَيضًا: إِنَّما سميَ اللهُ؛ لأَنَّهُ لا تُدركُهُ الأَبصارُ «ولاهُ» معناهُ احتجب[3].

واللهُ هو الرَّبُّ الَّذي تأْلهُهُ القلوبُ، وتحنُّ إِليهِ النُّفوسُ، وتُحبُّهُ وتأْنسُ بذكرِهِ وقربِهِ، وتفتقرُ إِليهِ المخلوقاتُ كلُّها.

---

(١) «مع الله» سلمان العودة، ص ٤١.

(٢) أَي: يلجئون.

(٣) «تفسير السمرقندي»: (١/ ١٣).

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمانِ للهِ ﷻ يشتملانِ الرَّحمَةَ الذَّاتيةَ والفعليَّةَ، وفيهما أَقوالٌ؛ فقيل:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: رحمانُ الدُّنيا، والرَّحيمُ: رحيمُ الآخرَةِ. أَي أَنَّ الرَّحمنَ لرحمتِهِ للمؤمنِ والكافرِ، والمخلوقاتِ في الدُّنيا، ويختصُّ اسمُ الرَّحيمِ بالمؤمنينَ في الآخرةِ. وقيلَ: للمؤمنينَ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: رحمانُ الدُّنيا والآخرَةِ ورحيمهما، وقد ثبتَ في السُّنَّةِ هذا اللَّفظُ، أَي تشملُ رحمتُهُ الخلقَ في الدُّنيا والآخرَةِ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: صفةٌ لذَّاتِ اللهِ ﷻ والرَّحيمُ صفةٌ لأَفعالِهِ، ولهذا يُمكنُ أَنْ يتسمَّىٰ غيرُهُ بالرَّحيمِ، لكن لا يجوزُ التَّسمِّي بالرَّحمنِ لغيرِهِ ﷻ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: تعني صفةً علىٰ صيغَةِ مبالغَةٍ تدلُّ علىٰ الامتلاءِ والغلبةِ، والرَّحيمُ علىٰ صيغَةِ مبالغَةٍ تدلُّ علىٰ التَّكرارِ والوقوعِ، و(المبالغةُ في الدُّنيا بعموميةِ العطاءِ، والمبالغةُ في الآخرةِ بخصوصيةِ العطاءِ للمؤمنِ، وكثرةِ النِّعمِ، والخُلودِ فيها)[٢].

(١) فالرحمن أشد مبالغة من الرحيم في الدُّنيا؛ لأنه يجازي من يستحق ومن لا يستحق. والرحيم أشد مبالغة في الآخرة لأنه عطاء لا ينقطع، فيجازي من يستحق، أضعافًا مضاعفة أبدية، ويحرم منها من لا يستحق.

(٢) «تفسير الشعراوي»: (١/ ٥٢).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: هو أَمْدَحُ. والرَّحيمُ أَلطَفُ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ : هُو المُنعِمُ بما لا يُتَصَوَّرُ صُدُورُ جنسِهِ مِنَ العِبادِ.

والرَّحيمُ: هُو المُنعِمُ بما يُتَصَوَّرُ جنسُهُ مِنَ العِبادِ(١).

❁ اليقينُ بالبَسْمَلَةِ:

والبسملةُ لمَنْ قالها موقنًا بها، هي انخلاعٌ من الحولِ والقوَّةِ، واستصغارُ للنَّفسِ معَ معيةِ اللهِ وعونهِ، وهيَ إِعلانٌ بالتزامِ أَوامرِ اللهِ ونواهيهِ فيما يليها من أَقوالٍ أَو أَعمالٍ، وهي بيانٌ لرحمةِ اللهِ الَّتي تحوطُ بالمؤمنِ في كلِّ أَحوالهِ، لاسيما مبتدئها، وهي إِعلانٌ بأَنَّ شرعَ اللهِ الَّذي يصدرُ كلامه باسمهِ هو الرَّحمَةُ، والخيرُ للنَّاسِ.

وهي كذلك استفتاحٌ من أَوَّلِ سطرٍ بين دفتي المصحفِ، ثمَّ في فواصلهِ؛ يُبيِّنُ تميُّزَ هذا الدِّينِ وأَهلهِ.

والمللُ الباطلةُ؛ تصدرُ «الفرمانات، والقوانين، والدَّساتير» باسمِ الأَوثانِ والمعبوداتِ الباطلة.

المفتونونَ يُصدرونَ دساتيرهم باسم الشَّعبِ والوطنِ وغيرِهِ.

وأَهلُ التَّثليثِ باسمِ الأَبِ والابنِ والرُّوحِ القدسِ.

---

(١) «تفسير البحر المحيط» لأبي حيان الغرناطي: (١/ ١٢٨-١٢٩).

وأَمَّا أَهلُ الإِيمانِ يبدءونَ باسمِ اللهِ، الواحدِ الأَحدِ؛ إِنَّها مفاصلةٌ بينَ الإِيمانِ والشِّركِ تبدأُ من السَّطرِ الأَوَّلِ في كتابِ اللهِ.

وسواءٌ أَكانَتِ البسملةُ آيةً من سورةِ الفاتحةِ، أَو استهلالًا يسبقها، كما اختلفَ العلماءُ علىٰ مرِّ العصورِ في شأْنها؛ فهي آيةٌ من كتابِ اللهِ في «سورةِ النملِ» صارتْ فاصلةً في المصحفِ تمييزًا بين السُّورِ، واستفتاحًا لها، وعلىٰ ذلكَ سار المسلمونَ اقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ وصحبِهِ الكرامِ رضي الله عنهم في ذلكَ.



﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

تستهلُّ أعظمُ سورةٍ، بكلمَةٍ عظيمَةٍ، هي ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

وقد أَفاضَ أَهلُ اللُّغةِ والتَّفسيرِ كثيرًا في شرحِ معنى الحمدِ، واختارَ كثيرونَ منهم أَنَّهُ يتضمنُ أَمرينِ: الثَّناءَ الكاملَ على اللهِ وشكرِهِ ﷻ (واللهُ تعالىٰ مالكٌ لجميعِ الحمدِ من الخلقِ، أَو مُستحقٌّ لأَنْ يحمدوهُ)[1].

وقال ابن القيِّم رحمه الله: (الحمدُ إِخبارٌ عن محاسنِ المحمودِ معَ حبِّهِ وإِجلالِهِ وتعظيمِهِ)[2]. و(الحمدُ: أَن تذكرَ محاسنَ الغيرِ...؛ فلا يحمدُ مَنْ ليسَ في صفاتِهِ ما يستحقُّ الحمدَ، ولا يُحمدُ مَنْ لم يفعلْ جميلًا)[3]. والحمدُ عامٌّ وخاصٌّ: عامٌّ لكلِّ ما يفعلُهُ اللهُ، وخاصٌّ بحمدِ الشُّكرِ.

يقولُ ابنِ جُزَيٍّ رحمه الله: (﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يقتضي الثَّناءَ عليهِ لما هو من الجلالِ والعظمةِ والوحدانيَّةِ، والعزَّةِ، والإِفضالِ، والعلمِ، والمقدرةِ، والحكمةِ وغيرِ ذلكَ من الصِّفاتِ، ويتضمنُ معاني أَسمائِهِ

---

(١) «تفسير الجلالين»: ص١.

(٢) «بدائع الفوائد»: (٢/ ٣٢٥).

(٣) «لمسات بيانية في نصوص من التنزيل» د. فاضل السامرائي: ص١١-١٢.

الحُسنىٰ التِّسعةَ والتِّسعينَ، ويقتضي شكرَهُ والثَّناءَ عليهِ بكلِّ نعمَةٍ أَعطىٰ ورحمَةٍ أَولىٰ جميعَ خلقِهِ في الآخرَةِ والأُولىٰ، فيا لها من كلمَةٍ جمعتْ ما تضيقُ عنهُ المجلداتُ، واتَّفقَ دونَ عدِّهِ عقولُ الخلائقِ، ويكفيكَ أَنَّ اللهَ جعلَها أَوَّلَ كتابِهِ، وآخرَ دعوىٰ أَهلِ الجنَّةِ)[١].

ويقولُ ابنِ عطيَّةَ ﵀: (الحمدُ للهِ، في ضِمْنِها التَّوحيدُ الَّذي هُو معنىٰ لا إِله إِلَّا اللهُ؛ ففي قولِهِ توحيدٌ وحمدٌ)[٢].

فخلاصَةُ القولِ أَنَّهُ: ثناءٌ جميلٌ، وحبٌّ وتعظيمٌ، وشكرٌ وامتنانٌ.

واللهُ ﷻ ارتَضىٰ لعبادِهِ هذِهِ الصِّيغَةَ للحَمْدِ لأَسبابٍ، منها:

١- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: أَنَّها مُطلَقةٌ؛ فلو قالَ العبدُ: «أَحمدُ اللهَ» أَو «نحمدُ اللهَ» يكونُ ذلكَ مختصًّا بفاعلٍ معينٍ.

٢- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: جملةٌ اسميةٌ؛ تدلُّ علىٰ الثُّبوتِ، بخلافِ الفعليَّةِ الدَّالةِ على الحدوثِ والتَّجددِ، وكذلكَ فالنُّطقُ بها هو نطقٌ بصدقٍ؛ سواءً أَكانَ القلبُ غافلًا، أَو حاضرًا عن الحمدِ، بخلافِ «أَحمدُ» إِذْ قد لا يكونُ القلبُ حاضرًا في قولها.

٣- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: فلو قيلَ: أَحمدُ فلانًا، فلا يعني ذلكَ أَنَّ المحمودَ يستحقُّ الحمدَ، أَمَّا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فهو استحقاقٌ للهِ ﷻ بذلكَ الحمدِ.

(١) «تفسير ابن جزي»: (١/ ٦٣).

(٢) «تفسير ابن عطية»: (١/ ٦٦).

٤- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: فلو قيلَ ما سبقَ؛ فهو مرتبطٌ بزمنٍ معينٍ، أَمَّا ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فلا حدودَ زمنيةٍ لها[١].

٥- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: لأَنَّ الأَلفَ واللامَ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاستغراقِ؛ أَي لشمولِ جميعِ أَنواعِ المحامدِ كلِّها للهِ ﷻ أَي الحمدُ - كلُّ الحمدِ - للهِ.

٦- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: لأَنَّ ارتباطَ الحمدِ بلفظِ الجلالةِ «اللهُ» يشملُ كلَّ صفاتِ الكمالِ. فلم يقلْ: الحمدُ للوهابِ، أَو الرَّزاقِ؛ لكي يشملَ كلَّ صفاتِ الأُلوهيَّةِ.

وكذلكَ لم يقلْ: «احمدُوا اللهَ» لأَنَّ الإِنسانَ عاجزٌ عن الإِتيانِ بحمدِ اللهِ وشكرِهِ؛ فلمْ يحسنْ أَن يكلَّفَ فوقَ ما يستطيعُهُ، وذلكَ أَنَّ نعمَ اللهِ علىٰ العبادِ غيرِ محصورَةٍ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].أَمَّا إِذا قالَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فالمعنىٰ أَنَّ كمالَ الحمدِ حقَّهُ وملكهُ؛ سواءٌ قدرَ الخلقُ على الإِتيانِ بِهِ، أَو لمْ يقدروا[٢].

واللهُ ﷻ ارتضىٰ لعبادِهِ هذِهِ الصِّيغَةِ من الحمدِ، والَّتي يستوي في نطقها العالمُ وغيرُ العالمِ، فالجميعُ يُحسنُ قولها، وهذا بحدِّ ذاتِهِ يستدعي الحمدَ؛ لأَنَّهُ يَسَّرَ علىٰ عبادِهِ طريقَ حمدِهِ، وهو ذو الفضائلِ والمحامدِ العُظمىٰ، والآلاءِ والنِّعمِ الكثيرَةِ الَّتي تُعَدُّ فلا تُحصىٰ.

(١) «لمسات بيانية»: ص ١٣-١٥.
(٢) «تفسير النيسابوري»: (١/ ٩٤).

❁ الحَمْدُ أَوَّلًا وآخرًا:

واللهُ ﷻ مستحقٌّ للحمدِ أَوَّلًا وآخرًا ودومًا، وهو ﷻ لَهُ الحمدُ قبلَ أَنْ يخلقَ الخلائقَ ومن بعدُ، في الدُّنيا والآخرَةِ؛ ولهذا استمرَّ الحمدُ معَ رحلةِ الإنسانِ منذُ خُلقَ، وحتَّىٰ يقضي اللهُ بينَ الخلائقِ يومَ القيامَةِ، وفي حياةِ الخُلودِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أَوَّلُ ما نطقَ بِهِ آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وما سيُقالُ عندَ قضاءِ اللهِ بينَ عبادِهِ يومَ القيامَةِ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ ونَفَخَ فيهِ الرُّوحَ عَطسَ، فقالَ: الحمدُ للهِ، فحمِدَ اللهَ بإِذنِه، فقالَ لَهُ ربُّهُ: يرحَمُكَ اللهُ يا آدمُ!**»(١).

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في الخِتَام: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر].

(أَي: ونطقَ الكونُ أَجمعُهُ - ناطقهُ وبهيمُهُ - للهِ رَبِّ العالمين، بالحمدِ في حكمِهِ وعدلِهِ؛ ولهذا لمْ يسندِ القولُ إِلىٰ قائل بلْ أَطلقَهُ، فدلَّ علىٰ أَنَّ جميعَ المخلوقاتِ شهدتْ لَهُ بالحمدِ. قالَ قتَادَةُ: (افتَتَحَ الخلقَ بالحمدِ في قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] واخْتتَمَ بالحمدِ في قولِهِ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾)(٢).

---

(١) أَخرجه الترمذي: من حديث أَبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»: (٤٥٨٥).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (٤/ ٦٠).

فعندَ بدءِ خلقِ السَّمَواتِ والأَرضِ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و(لمَّا أَفنىٰ الخلقَ وبعثهم وحَكَم بَيْنَهُم، فاستقرَّ أَهل الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأَهلُ النَّارِ في النَّارِ؛ ختمَ بقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾)[1]؛ ولهذا يلهَمُ أَهلُ الجنَّةِ تسبيحَهُ وتحميدَهُ كما يلهمونَ النَّفسَ:

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس].

❁ المقامُ المحمودُ ومقامُ الحامدينَ:

ولقد أُوتي محمدٌ المقامَ المحمودَ؛ لأَنَّهُ أَحمدُ؛ أَي (أَحمدُ الحامدين لرَبِّهِ، فاسمُهُ مطابقٌ لمعناهُ؛ لأَنَّهُ يفتحُ عليهِ في المقامِ المحمودِ، وهو مقامُ الشَّفاعَةِ العُظمىٰ الَّذي يحمدُهُ فيهِ الأَولون والآخرون؛ بمحامدَ عظيمةٍ لم يلهمها لغيرِهِ، فيحمدُ رَبَّهُ بها، وكذلك يعقدُ لَهُ لواءُ الحمدِ؛ أَي لواءٌ يتبعه كلُّ حامدٍ ومحمودٍ، وأَصحابُ الحمدِ من لهم الشَّفاعةُ يومئذٍ كالأَنبياءِ... ثمَّ إِنَّهُ لم يكن محمدًا حتَّىٰ كانَ أَحمدَ، حمدَ رَبَّهُ فنبأَهُ وشرفَهُ)[2].

فهكذا مقامُ الحامدينَ؛ لأَنَّ الحمدَ هو تحقيقٌ للتَّوحيدِ، وهو

---

(١) «معاني القرآن وإِعرابه» للزجاج: (٤/ ٣٦٤).

(٢) «شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية»: (٤/ ٢٣٢-٢٣٣) بتصرف.

امتنانٌ وعرفانٌ للخالقِ وشكرٌ لَهُ ﷻ وثناءٌ جميلٌ «وعندما نقولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فنحنُ نعبرُ عن انفعالاتٍ متعددةٍ، وهي في مجموعها تحملُ العبوديةَ والحبَّ والثَّناءَ والشُّكرَ والعرفانَ. وكثيرٌ من الانفعالاتِ الَّتي تملأُ النَّفسَ عندما تقولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلُّها تحملُ الثَّناءَ العاجزَ عن الشُّكرِ لكمالِ اللهِ وعطائِهِ، وهذِهِ الانفعالاتُ تأْتي من النَّفسِ وتستقرُّ في القلبِ، ثمَّ تفيضُ من الجوارحِ على الكونِ كلِّهِ.

(فالحمدُ ليسَ ألفاظًا تُردَّدُ باللِّسانِ، ولكنَّها تَمُرُّ أوَّلًا على العقلِ ليعي معنى النِّعم، ثمَّ بعد ذلك تستقرُّ في القلبِ فينفعلَ بها، وتنتقلُ إلى الجوارحِ)»[١] فتتحركُ بها، وتنبعثُ إلىٰ من حولِ قائلها؛ ولهذا كانَ فضلُ الحمدِ عظيمًا.

كما قال ﷺ: «**وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ ما بيْنَ السَّمَواتِ والأَرْضِ**»[٢]؛ أَي أَنَّ وصفَ اللهِ تعالىٰ بالمحامدِ والكمالاتِ الذَّاتيةِ والفعليَّةِ؛ تملأُ الميزانَ الَّذي توزنُ بهِ الأَعمالُ يومَ القيامَةِ؛ لأنَّها عندَ اللهِ ﷻ عظيمةٌ.

وفي ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ طمأْنينةٌ تنسكبُ في نفسِ قائلها، المسكونِ بمعانيها؛ فتكبحُ فيهِ النَّظرَ إلىٰ ألوانِ البلاءِ والامتحانِ والصِّعابِ،

(١) «تفسير الشعراوي»: (١/ ٦١).

(٢) «صحيح مسلم»، (كتاب الطهارة): حديث رقم (٣٦٠).

بعينِ الضَّجرِ والاكتئابِ والأَحزانِ؛ ولهذا يكونُ الحامدونَ أَكثرَ النَّاسِ طمأْنينةً وسكينةً، وتصالُحًا مع النَّفسِ والكونِ، فهمُ الأَشدُّ حبًّا للهِ؛ لما يستعرضونَهُ من أَنواعِ الأَفضالِ والنِّعمِ، الَّتي تمرُّ أَمامَ أَعينهم حالَ حمدِهم وشكرِهم، وهُم الأَكثرُ استفادةً وتنعُّمًا بنِعَمِ اللهِ، (مصداقًا لقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧] وهكذا نعرفُ أَنَّ الشُّكرَ على النِّعمةِ يُعطينا مزيدًا من النِّعمَةِ؛ فنشكرُ عليها فتعطينا المزيدَ، وهكذا يظلُّ الحمدُ دائمًا، والنِّعمةُ دائمةٌ)(١)(٢).

❁ ملازمةُ الحمْدِ للعباداتِ وفضلِهِ:

ولعظمِ أَهميَّةِ الحمدِ في العبادَةِ؛ صارَتْ لازمةً لكثيرٍ من العباداتِ، في مبتدأ الأَدعيَةِ والخُطَبِ، ومنتهى الأَكلِ وغيرِهِ، وأَصبحتْ مُلازمةً لكثيرٍ من العباداتِ، وتجلَّلتْ بها أَذكارٌ كثيرةٌ؛

(١) «تفسير الشعراوي»: (١/ ٦٢).

(٢) قال ابن كثير في معرض حديثه عن «الحمدِ والشُّكرِ»: (التحقيقُ أَنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمدُ أَعم من الشُّكرِ من حيث ما يقعان عليه؛ لأَنَّه يكون على الصفاتِ اللازمة والمتعدية؛ تقول: حمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه؛ وهو أَخص لأَنَّه لا يكون إِلَّا بالقولِ. والشُّكرُ أَعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأَنَّهُ يكون بالقولِ والفعل والنيَّة، كما تقدم، وهو أَخص؛ لأَنَّهُ لا يكون إِلَّا على الصفاتِ المتعدية: لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإِحسانه إِليَّ، هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أَعلم!) «تفسير القرآن العظيم»: (١/ ٣٥).

ولهذا كان: «**أَفضَلُ الذِّكرِ: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ، و أَفضَلُ الشُّكرِ الحَمْدُ للهِ**»(١)، كما قال ﷺ وكان: «**أَفضَلُ الذِّكرِ: لا إِلهَ إِلّا اللهُ، وأَفضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للهِ**»(٢)، وبالشُّكرِ تَزِيدُ النِّعمُ.

❁ **وجاءَ في فضلِ الحمدِ كذلكَ أَحاديثُ كثيرةٌ.**

منها: ما رواهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضي الله عنه أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ حدثَهُم:

«**أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ قَالَ: يَا رَبِّ! لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَعَضَّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا، فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَا: يَا رَبَّنَا! إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا، قَالَ اللهُ عز وجل وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا: يَا رَبِّ! إِنَّهُ قَدْ قَالَ: يَا رَبِّ! لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ! فَقَالَ اللهُ عز وجل لَهُمَا: اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي، حَتَّىٰ يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا**»(٣).

ولقد أَصبحَ (افتتاحُ الكلامِ بالتحميدِ، سُنَّةَ الكتابِ المجيدِ، لكلِّ بليغٍ مجيدٍ. فلم يزلِ المسلمونَ من يومئذٍ يلقبونَ كلَّ كلامٍ

---

(١) حديث حسن: «السلسلة الصحيحة» للألباني، برقم: (١٤٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي، وصححه أحمد شاكر في «عمدة التفسير»: (١/ ٦٢).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٠١)، وقال أحمد شاكر: إسناده جيد. «عمدة التفسير»: (١/ ٦٢).

نفيسٍ، لم يشتملْ في طالعهِ على الحمدِ؛ بالأَبترِ أَخذًا من حديثِ أَبي هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ:

«كلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يبْدَأُ فيهِ ببسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ؛ فَهوَ أَقطعُ»[(١)][(٢)].

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والرَّبُّ هو الخالقُ المالكُ المُدَبِّرُ المتصرِّفُ في أَحوالِ الخلقِ والمنعمُ والقيِّمُ[(٣)]، و«الرَّبُّ» من التربيةِ، وهو المتكفلُ بالإِصلاحِ والرعايةِ، وهو السيِّدُ والمنقذُ، فاللهُ هو الرَّبُّ خالقُ كلِّ شيءٍ ومالكُهُ، وهو من أَسماءِ اللهِ «الملائمةِ للدُّعاءِ؛ لما فيهِ من معنى القدرةِ والرَّحمةِ والقُربِ، فالدَّاعي حينَ يقولُ: يا ربُّ! فكأَنَّهُ يتوسل إِليهِ تعالىٰ بنعمِهِ السَّابقَةِ وآلائِهِ الماضيَةِ[(٤)]. ومعاني الرَّبِّ أَربعةٌ؛ كما يقولُ ابن جُزَيّ: «الإِلهُ، والسيِّدُ، والمالكُ، والمصلحُ، وكلُّها في ربِّ العالمين»[(٥)].

و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إِمَّا مقصودٌ بها الخلائقُ كلُّها، أَو الإِنسُ

---

(١) أخرجه ابن ماجة وغيره، وحسنه النووي في «رياض الصالحين»: (١/ ٤٠٢) وضعفه الألباني في «إرواء الغليل» وسبق الكلام عليه عند تفسير: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

(٢) «التحرير والتنوير»: (١/ ١٥٤).

(٣) ينظر «لسان العرب»: (١/ ٣٨٤).

(٤) «مع الله» سلمان العودة: ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٥) «تفسير ابن جُزَيّ»: (١/ ٦٤).

والجنُّ؛ مثلما ذهبَ مفسرون إِلىٰ هذا وذاك[١]، وسواءٌ أَكانَ هذا المقصودَ أَو ذاك؛ فاللهُ من قبلُ ومن بعدُ هو رَبُّ الخلائقِ جميعها.

وحيثُ يأْتي ذكر الرَّبِّ هُنا في الفاتحَةِ في معرضِ الدُّعاء؛ فهو اعترافٌ من الدَّاعي لخالقِهِ بضعفِهِ، وقلَّةِ حيلتِهِ، واحتياجِهِ إِلىٰ مولاهُ ﷻ.

(والنِّعمةُ الأُولىٰ: هي أَنَّ المعبودَ أَبلغنا منهجَ عبادتِهِ. والنَّعمَةُ الثَّانيةِ: أَنَّهُ ربُّ العالمين، واللهُ ﷻ يريدُ أَنْ يطمئنَ عبادَهُ أَنَّهُ رَبُّ لكلِّ ما في الكونِ؛ فلا تستطيعُ أَي قوىٰ تخدمُ الإِنسانَ أَن تمتنعَ عن خدمتِهِ؛ لأَنَّ اللهَ ﷻ مسيطرٌ علىٰ كونِهِ، وعلىٰ كلِّ ما خلقَ، إِنَّهُ رَبُّ العالمينَ، وهذِهِ تُوجِبُ الحَمْدَ)[٢].



(١) وفي قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ رد على اليهود الَّذي زعموا أن الله رب بني إِسرائيل وحدهم، فكان الرد هنا، ينظر: «لمسات بيانية» للدكتور فاضل السامرائي، ص ٢٨.

(٢) تفسير الشعراوي: (١/ ٦٣-٦٤)

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وقد تقدَّمَ تبيانُ مَعَانيهما إجمالًا في البسملةِ.

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: (اسمانِ مُشْتقانِ من الرَّحمةِ، والرَّحمَةُ تستدعي مرحومًا، ولا مرحوم إلَّا وهو محتاجٌ).

كما يقررُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمه الله:

(إنَّما الرَّحمةُ التَّامَّةُ، إفاضَةُ الخيرِ على المحتاجينَ وإرادتُهُ لهم، عنايةً بهم، والرَّحمةُ العامَّةُ هي الَّتي تتناولُ المستحقَّ وغيرَ المستحقِّ، ورحمةُ اللهِ عز وجل تامَّةٌ وعامَّةٌ.

أمَّا تمامُها؛ فمِنْ حيثُ أنَّهُ أرادَ قضاءَ حاجاتِ المحتاجينَ وقضاها. وأمَّا عمومُها فمن حيثُ شُمولِها المستحقَّ وغيرَ المستحقِّ، وعمَّ الدُّنيا والآخرَةِ)[1].

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: في البسملةِ في معرضِ الاستعانَةِ باللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وبعدَ الحمدِ في معرضِ الحديثِ عن رحمَةِ الرُّبوبيَّةِ واستباقِ الحسابِ.

---

(١) «المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى» للغزالي: ص ١٧.

(وفي تكرارِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إِنْ كانَتْ التَّسميةُ آيةً من الفاتحَةِ؛ تنبيهٌ علىٰ عظمِ قدرِ هاتينِ الصِّفتينِ، وتأكيدُ أمرهما)[١].

ويلاحظُ أَنَّ ذكرَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعدَ الحمدِ، وبعدَ ذكرِ الرُّبوبيَّةِ التِفاتٌ إِلىٰ أَنَّ «من موجباتِ الحمدِ أَنَّ اللهَ ﷻ رحمنٌ رحيمٌ»[٢]؛ (فمضمونُ الجملةِ والوصفِ، أَن مَنْ كانَ موصوفًا بالرُّبوبيَّةِ والرَّحمةِ للمربوبينَ، كانَ مستحقًا للحمدِ)[٣].

ثُمَّ إِنَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تأْتي قبلَ ذكرِ يومَ القيامَةِ، وما فيهِ من حسابٍ للمؤمنينَ والكافرينَ، والمظلومينَ والظالمينَ (وقد جعلَ اللهُ رحمتَهُ تسبقُ غضبهُ، وهذهِ رحمةٌ تستوجبُ الشُّكرَ، فمعنىٰ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملةِ[٤]، يختلفُ عنها في الفاتحَةِ)[٥]، (وقدَّرَ بعضهم معناها في السِّياقِ: الحمدُ للهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ رَبِّ العالمين مالكِ يومِ الدِّينِ)[٦].

ولإِيثارِ ذكرِ الرُّبوبيَّةِ والرَّحمةِ في أَوَّلِ الفاتحَةِ علىٰ سائرِ

---

(١) «البحر المحيط»: أبو حيان الغرناطي (١/ ٢٠).

(٢) «تفسير الشعراوي»: (١/ ٦٥).

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان الغرناطي: (١/ ٢٠).

(٤) أي سياقها.

(٥) «تفسير الشعراوي»: (١/ ٥٤-٥٥).

(٦) «البحر المحيط» لأبي حيان الغرناطي: (١/ ٢٠).

الصِّفاتِ؛ حكمَةٌ ذكرها محمَّد رشيد رضا، مبينًا أَنَّ صفتي الرُّبوبيَّةِ والرَّحمةِ، هما الصِّفتانِ الدَّالتانِ علىٰ أَنَّ اللهَ تعالىٰ هو المالكُ المدبرُ لأُمورِ العالمِ كلِّها، وعلىٰ أَنَّ رحمتَهُ تعالىٰ تغلبُ غضبَهُ، وإِحسانَهُ الَّذي هو أَثرُ رحمتِهِ يغلبُ انتقامَهُ، ومعنى الانتقام لغةً: الجزاءُ على السَّيئاتِ، فمن شأْنِ الرَّبِّ المالكِ للعبادِ، المدبرِ لأُمورِهم، المُربي لهم؛ أَنْ يجازي كلَّ عاملٍ بعملِهِ، وينتقمَ للمظلومِ من ظالمِهِ.

إِذا علمنا هذا، تجلَّتْ لنا حكمَةُ وصفِ اللهِ تعالىٰ في أَوَّلِ فاتحةِ الكتابِ العزيزِ بالرُّبوبيَّةِ والرَّحمَةِ، الدَّالَّتينِ علىٰ جميعِ صفاتِ الأَفعالِ، وهي - واللهُ أَعلمُ بمرادِهِ - أَنَّ الفاتحَةَ ينظرُ فيها من وجهينِ:

أَحدُهما: ما دلَّ عليهِ اسمُها هذا؛ أَعني كونها فاتحةً ومبدأً للقرآنِ.

وثانيهما: أَنَّها قَدْ شُرِعَتْ للقراءَةِ في الصَّلواتِ كلَّ يومٍ، وكلٌّ منهُما يناسبُهُ البدءُ بذكرِ ربوبيَّةِ اللهِ ورحمتِهِ(١).



(١) ينظر: «تفسير المنار»: (١/ ٦١-٦٣).

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

تقديرُ ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ أَي: مالكِ مجيءِ يومِ الدِّينِ، أَو مالكِ الأَمرِ يومَ الدِّينِ[١]، وقاضي وحاكمِ هذا اليوم؛ وهو اليومُ الَّذي يدينُ اللهُ العبادَ فيهِ بأَعمالهم؛ أَي يحاسبهم بها، فيثيبُ المحسنَ ويعاقبُ المسيءَ، وهو (اسمٌ ليومٍ معينٍ، موصوفٌ في كتابِ اللهِ بأَوصافٍ عظيمةٍ هائلةٍ، يحاسبُ اللهُ فيهِ الخلائقَ، ويحكمُ بينهم ويجزيهم، والإِيمانُ بهذا اليومِ ركنٌ من أَركانِ الدِّينِ، وإِضافةُ - ملكٍ ومالكٍ - إِليهِ، تفيدُ أَنَّ الأَمرَ كلَّهُ في ذلكَ اليومِ لَهُ وحدَهُ؛ فلا يملكُ أَحدٌ لأَحدٍ فيهِ شيئًا من نفعٍ، ولا من كشفِ ضَرٍّ)[٢].

وهذا اليومُ الموصوفُ في القرآنِ (لم يبيِّنهُ هنا، وبيَّنهُ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾ [الانفطار])[٣]، والدِّين كلُّهُ، بكلِّ طاعاتِهِ وكلِّ منهجِهِ؛ قائمٌ علىٰ أَنَّ هناكَ حسابًا في الآخرَةِ[٤].

---

(١) «تفسير ابن جُزَيّ»: (١/ ٦٥).

(٢) «تفسير المنار»: (١/ ٦٧).

(٣) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» لمحمد أمين الشنقيطي: (١/ ١٨).

(٤) «تفسير الشعراوي»: (١/ ٧٣).

❁ **ومن فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:**

إِثباتُ البَعْثِ، والجزاءِ، وحثُّ الإِنسانِ علىٰ أَنْ يعملَ لذلكَ اليومِ الَّذي يُدانُ فيهِ العاملونَ[١].

وفي الآيةِ أُمورٌ تتعلقُ بموضعها وأَلفاظها ومعانيها ومراميها منها:

أَوَّلًا: أَنَّ اللهَ ﷻ ذكرَ فيها يومَ «الدِّينِ» دونَ أَسماءِ يومَ القيامَةِ الأُخرىٰ؛ للدَّلالَةِ علىٰ طبيعَةِ القضاءِ والحكمِ، والعدلِ في هذا اليوم، فالتَّذكيرُ بصفَةِ «العدلِ» والتَّذكيرُ بها بعدَ «الرَّحمَةِ»؛ ما يجعلُ التَّصوُّرَ الإِيماني متزنًا وواضحًا لدى المؤمنين.

ثانيًا: أَنَّ اللهَ خَصَّصَ الملكَ بيومِ الدِّينِ، معَ أَنَّ اللهَ مالكُ يومِ الدِّينِ وغيرِهِ، مالكُ الكونِ كلِّهِ والدُّنيا والآخرَةِ؛ (لأَنَّ في الدُّنيا، كانوا منازعين لَهُ في الملكِ، مثل: فرعونَ، ونمرودَ، وغيرهما، وفي ذلكَ اليومِ لا ينازعهُ أَحدٌ في ملكِهِ، وكلُّهم خضَعوا لَهُ، كما قالَ تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦])[٢].

ثالثًا: أَنَّ في التَّذكيرِ بيومِ الدِّينِ زَجْرًا لمَنْ يغرُّهُ رحمَةُ اللهِ وربوبيتِهِ، فيما تقدَّمَ من السُّورَةِ، فتصرُّفُ اللهِ رَبِّ العالمينَ في الكونِ تصرُّفُ رحمةٍ، ومنهُ التَّكاليفُ الشَّرعيَّةُ المؤديةُ إِلىٰ حفظِ

---

(١) «تفسير العثيمين»: الفاتحة والبقرة: (١/ ١٣).

(٢) «تفسير السمرقندي»: (١/ ١٧).

مصالحِ النَّاسِ عامَّةً وخاصَّةً، علىٰ ما فيها من مشقةٍ، فكانَ ذكرُ التَّذكيرِ بالحسابِ؛ لضبطِ انجرافِ النَّفسِ نحوَ الاغترارِ برحمةِ اللهِ، فترتكبُ الآثامُ، وتنفلتُ من التَّكاليفِ[1].

رابعًا: أَنَّ العدلَ هو ذاتهُ من رحمَةِ اللهِ تعالىٰ بالمؤمنين، وفيهِ سلوان لهم علىٰ ما يلاقونَهُ من مشاقِّ التَّكاليفِ، ومن الأَذى الَّذي قد يلحقُ بهم من الظالمينَ والبُغاةِ، وما يجدونَهُ من متاعبِ الطَّريقِ.

خامسًا: أَنَّ لجعلِ قولِهِ تعالىٰ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بينَ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: وهُما متسلسلانِ في المعنىٰ، حكمةٌ، لفت إِليها أَبو جعفر الغرناطيُّ بقولِهِ: (اللهُ تعالىٰ خصَّصَ هذِهِ الأُمَّةَ بخصائصِ الاعتناءِ والتَّكريمِ، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]. وجعلَ نبيَّنا ﷺ سيِّدَ ولدِ آدمَ، والمصطفىٰ من كافَّةِ الخلقِ، والتَّابعُ يشرفُ بشرفِ المتبوعِ، وقدْ خاطبَهُ تعالىٰ بخطابِ الرَّحمَةِ والتَّلطفِ والاعتناءِ فقال تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٣]. فقدَّمَ العفوَ بينَ يدي ما صورتُهُ العتبُ لئلا ينصدعَ قلبُهُ ﷺ فكذلك تلطفَ لعبادِهِ من أُمَّةِ هذا النَّبيِّ الكريمِ وأَمَّنهم من خوفهم وإِشفاقهم من عرضِ أَعمالهم وحسابهم، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير»: (١/ ١٧١-١٧٣).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. لما كانَ تعالىٰ قد وصفَ هذا اليومَ بأَنَّهُ يومٌ تشخصُ فيهِ الأَبصارُ: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج:٢] قدَّم هُنا تعريفهم بأَنَّهُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأَنَّهُ ملكُ ذلك اليومِ؛ فأنس هذِهِ الأُمَّةِ؛ كما أَنسَ نبيِّهم، وذلكَ أَبينَ شيْءٍ)[1]

سادسًا: أَنَّ في تعقيبِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بقولِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إِشارةً إِلىٰ أَنَّهُ وليُّ التَّصرفِ في الدُّنيا والآخرَةِ؛ فهو إِذن تتميمٌ[2].

سابعًا: أَنَّهُ قالَ: يومَ «الدِّينِ» ولمْ يَقُلْ: «القيامَةِ» ترجيحًا للعمومِ؛ فإِنَّ الدِّينَ بمعنى الجزاءِ يشملُ جميعَ أَحوالِ يومِ القيامَةِ، من ابتداءِ النُّشُورِ إِلى السَّرمدِ الدَّائمِ[3].

ثامنًا: أَنَّ من معاني يومَ الدِّينِ: الجزاءُ والحسابُ، والقهرُ والطاعَةُ، فيعزُّ فيهِ أَهلُ الطَّاعَةِ، ويذلُّ ويقهرُ فيهِ أَهلُ الكُفْرِ، فيكون بمعنىٰ (يومَ إِعلاءِ الدِّين)[4].

(١) «ملاك التأويل القاطع بذوي الإِلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل» لأبي جعفر الثقفي الغرناطي: (١/ ٢٠).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١/ ١٧٣).

(٣) «روح المعاني» للألوسي: (١/ ٨٨).

(٤) «لمسات بيانية» للسامرائي: ص ٣٨.

إِنَّ حقيقةَ اليومِ الآخرِ، ومسأَلةُ الجزاءِ بالجنَّةِ والنَّارِ هي الضَّابطُ لسيرِ الحياةِ الدُّنيا، والإِيمانُ بهِ أَحدُ أَركانِ العقيدَةِ والإِيمانِ، كما أَنَّ الإِيمانَ بهِ ضرورةٌ ملحةٌ للنَّاسِ، لإِدراكِ طبيعةِ معركتهم مع النَّفسِ والشَّيطانِ، ولازمٌ لإِدارةِ علاقاتهم الإنسانيَّةِ كذلك، وباعثٌ للطمأْنينَةِ عندَ الابتلاءِ والمظالمِ وغيرها، ولا تستقيمُ الحياةُ دون تحقيقِ العدلِ علىٰ هذا النَّحوِ الَّذي تبيِّنهُ الآيةُ الكريمةُ؛ فرُبوبيَّةُ اللهِ وعنايتُهُ بخلقِهِ تستلزمُ أَنْ يتحققَ العدلُ الإِلهي فيهم، وأَلَّا يتركوا سُدَىٰ دونَ أَنْ يقتصَّ المظلومُ من الظَّالمِ، ودونَ أَنْ يلقى الصَّابرونَ أَجرهُم في يومٍ عادلٍ لا ظلمَ فيهِ، وإِيمانٌ كهذا، يضبطُ حركةَ المؤمن، ويدفعُهُ نحو هدفٍ أَسمىٰ لا يشاركهُ فيهِ غيرُهُ، ويرفعُ لديهِ قيمةَ استعلائِهِ الإِيماني.



﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

فِي الآيةِ القصيرةِ البليغةِ تبيانٌ لطريقِ العبوديَّةِ، وانسلاخُ العبدِ التَّامِّ وتبرؤُهُ الكاملِ من تصريفِ العبادَةِ لغيرِ اللهِ ﷻ وانخلاعُهُ من التَّوكلِ علىٰ سواهُ فِي هذا الطَّريقِ.

يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله: (وسِرُّ الخلقِ والأَمرِ، والكتبِ والشَّرائعِ، والثَّوابِ والعقابِ انتهىٰ إِلىٰ هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبوديةِ والتَّوحيدِ، حتَّىٰ قيلَ: أَنزلَ اللهُ مائةَ كتابٍ وأَربعةَ كُتُبٍ، جمعَ معانيها فِي التَّوراةِ والإِنجيلِ والقرآنِ، وجمعَ معاني هذِهِ الكُتبِ الثَّلاثةِ فِي القرآنِ، وجمعَ معاني القرآنِ فِي المفصلِ، وجمعَ معاني المفصلِ فِي الفاتحَةِ، ومعاني الفاتحَةِ فِي ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾)[1].

ومعنىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أَي لا نعبدُ إِلَّا إِيَّاكَ، ولا نستعينُ إِلَّا بكَ، وتمَّ تقديمُ المفعولِ ﴿إِيَّاكَ﴾ فِي الحالَّتين ليفيدَ الحصرَ، وتكرارُ ﴿إِيَّاكَ﴾ لمزيدٍ من الاهتمامِ.

فأَمَّا معنىٰ العبادَةِ: فهي (اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ من الأَقوالِ والأَعمالِ الباطنةِ والظاهرةِ)[2]، وهي كمالُ المحبَّةِ مع

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» لابن القيم: (١/ ٩٥).

(٢) «كتاب العبودية» لشيخ الإِسلام ان تيمية: ص١ .

كمالِ الخضوعِ، وهي (ضربٌ من الخضوعِ بالغٌ حدَّ النهايةِ، ناشئٌ عن استشعارِ القلبِ عظمةً للمعبودِ. ولكلِّ عبادةٍ من العباداتِ الصَّحيحةِ أَثرٌ، في تقويمِ أَخلاقِ القائمِ بها، وتهذيبِ نفسهِ، فإذا وجدتَ صورةَ العبادةِ خاليةً من هذا المعنىٰ لم تكن عبادةً، كما أَن صورةَ الإِنسانِ وتمثالهُ ليسَ إِنسانًا)[١]، والعربُ تقولُ: طريقٌ معبدٌ أَي مذللٌ، والتَّعبدُ هو التَّذللُ والخضوعُ، فمَن أَحببتهُ ولم تكن خاضعًا لهُ، لم تكن عابدًا لهُ، ومَن خضعتَ لهُ بلا محبةٍ لم تكن عابدًا لهُ؛ حتَّىٰ تكونَ محبًّا خاضعًا[٢].

وأَمَّا الاستعانَةُ: فهي طلبُ المعونَةِ؛ وهي (إِزالةُ العجزِ، والمساعدةُ علىٰ إِتمامِ العمل الَّذي يعجزُ المستعين عن الاستقلالِ بهِ بنفسِهِ)[٣]، والاستعانةُ تُحقِّقُ التَّوكلَ علىٰ اللهِ ﷻ لأَنَّها (تجمعُ أَصلين: الثِّقةُ باللهِ، والاعتمادُ عليهِ؛ فإِنَّ العبدَ قد يثقُ بالواحدِ من النَّاسِ، ولا يعتمدُ عليهِ في أُمورهِ مع ثقتِهِ بهِ؛ لاستغنائهِ عنهُ، وقد يعتمدُ عليهِ مع عدمِ ثقتهِ بهِ لحاجتهِ إِليهِ، ولعدمِ مَن يقومُ مقامَهُ، فيحتاجُ إِلىٰ اعتمادهِ عليهِ، مع أَنَّهُ غيرُ واثقٍ بهِ، والتَّوكلُ معنًى يلتئمُ من أَصلين: من الثِّقةِ والاعتمادِ وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) «تفسير المنار»: (١/ ٤٨) باختصار.

(٢) ينظر «مدارج السالكين» لابن القيم: (١/ ٩٦-٩٧).

(٣) «تفسير المنار»: (١/ ٤٩).

﴿نَسۡتَعِينُ﴾)[١]؛ أي أَنَّ الاستعانةَ تتضمنُ:

١-الثِّقةُ باللهِ وبربوبيتِهِ.

٢- الاعتمادُ عليهِ، يقينًا بقدرتِهِ ورحمتِهِ.

❁ **ويلاحظُ في هذِهِ الآيةِ الكريمةِ:**

١- الانتقالُ من أُسلوبِ الحديثِ بطريقِ الغائبِ المبتدئِ من قولِهِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلىٰ قولِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إلىٰ أُسلوبِ طريقِ الخطابِ ابتداءً من قولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إلىٰ آخرِ السُّورةِ، وهو ما يعرفُ في البلاغةِ العربيةِ بـ«الالتفاتِ» وهو فنٌّ بديعٌ من فنونِ نظمِ الكلامِ البليغِ عندَ العربِ[٢][٣].

وبالإضافةِ إلىٰ بديعِ الالتفاتِ (ففيهِ إشارةٌ إلىٰ أَنَّ العبدَ إذا ذكرَ اللهَ تقرَّبَ منهُ فصارَ من أَهلِ الحضورِ فناداهُ)[٤]؛ أَي أَنَّ الحديث

---

(١) «مدارج السالكين»: (١/ ٩٦).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١/ ١٧٨).

(٣) الالتفات هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها، بعد التعبير بالأول، وله فوائد، منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال، لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد، وهذه فائدته العامة، ويختص كل موضع (في القرآن) بنكت ولطائف باختلاف محله. ينظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي: (٢/ ١٥٥).

(٤) «تفسير ابن جُزَيّ»: (١/ ٦٦).

الشَّاملَ عن اللهِ ﷻ بهذا الضميرِ، هو تمهيدٌ للطلبِ والدُّعاءِ.

٢- والكلامُ في بدايةِ السُّورةِ «ثناءٌ» والثَّناءُ في الغيبةِ أَولىٰ، أَمَّا بعدها ففيهِ «دعاءٌ» والدُّعاءُ في الحضورِ أَولىٰ، فانتقلَ السِّياقُ من هذا إِلىٰ ذلك.

٣- وضميرُ الدُّعاءِ هنا جماعيٌّ: ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ و﴿ٱهۡدِنَا﴾ وليسَ أَعبدُ، أَستعينُ، اهدني، استصحابًا لمعيةِ المؤمنين وعبادتهم، واستعانتهم، ودعائهم الجماعي لربهم ﷻ.

يقولُ د. فاضل السَّامرائيُّ: (عبرَ عن العبادةِ والاستعانةِ بلفظِ الجمعِ، لا الإِفرادِ، فقالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ولم يقلْ: «أَعبدُ وأَستعينُ»؛ وذلك إِشارةً إِلىٰ أَهميةِ الجماعةِ في الإِسلامِ؛ فالدِّين الإِسلاميُّ ليسَ دينًا فرديًّا؛ بل هو دينٌ جماعيٌّ، وكثيرٌ من مظاهرِ الجماعيَّةِ واضحٌ فيهِ؛ كصلاةِ الجماعةِ، وهي تَفضُلُ صلاةَ الفردِ بسبعٍ وعشرينَ درجةً، وليستِ المساجدُ إِلَّا مظهرًا من مظاهرِ الجماعيَّةِ، وهذِهِ السُّورةُ الَّتي تتَرَدَّدُ في كلِّ ركعةٍ من ركعاتِ الصَّلاةِ فيها إِشارةٌ إِلىٰ أَهميةِ الجماعةِ، بكلمةِ ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ و﴿ٱهۡدِنَا﴾.

والحجُّ أَكبرُ مظهرٍ جماعيٍّ، والزَّكاةُ والصَّدقاتُ من أَكبرِ مظاهرِ التَّكافلِ الاجتماعيِّ. والجهادُ من شئونِ الجماعةِ ويعلنهُ

أَميرُ المؤمنين، والصُّومُ في الإِسلامِ ليسَ عبادةً فرديةً محضةً؛ بل هو عبادةٌ جماعيَّةٌ، فتخصيصهُ بشهرٍ معينٍ يلتزمُ بهِ كلُّ المجتمعِ المسلمِ، وليسَ كما يرغبُ الفردُ، من أكبرِ مظاهرِ الجماعيَّةِ، وتعيينُ الأَعيادِ ووجوبُ الإِفطارِ فيها؛ فلا يشذُّ فردٌ واحدٌ عن المجتمعِ؛ من أَكبرِ مظاهرِ الجماعيَّةِ، وعيادةُ المرضىٰ أَمرٌ جماعيٌّ، وغيرُ ذلكَ وغيرهُ، كلُّ ذلكَ من مظاهرِ الجماعةِ)[1].

كذلكَ؛ فإِنَّ أُمورَ الاستعانةِ - أَيضًا - فيها ما هو فرديٌّ وما هو جماعيٌّ، يخصُّ الأُمَّةَ كلَّها، ويتعين عليها أَنْ تقومَ بهِ بشكلٍ جماعيٍّ، فنهضةُ الأُمَّةِ وصلاحها وريادتها، وقيامها بدورها كخيرِ أُمَّةٍ أُخرجتْ للنَّاسِ؛ يتطلبُ جهدًا جماعيًّا، فالأُمَّةُ كلَّها تحتاجُ استعانةً جماعيَّةً باللهِ ﷻ يقولُ الرَّازيُّ: (أَمَّا لمَّا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ كانَ قدْ ذكرَ عبادةَ نفسهِ، وعبادةَ جميعَ المؤمنينَ، شرقًا وغربًا، فكأَنهُ سعىٰ في إِصلاحِ مهماتِ سائرِ المؤمنينَ)[2].

❁ وفي الآيةِ فوائدُ جمةٌ ولفتاتٌ عظيمةٌ، منها:

أَوَّلًا: أَنَّها تماثلُ في معناها كلمةَ التَّوحيدِ: فهي تشيرُ إِلىٰ تحقيقِ معنىٰ «لا إِله إِلَّا الله» لأَنَّ معناها مركبٌ من أَمرينِ: نفيُ:

---

(١) ينظر: «لمسات بيانية»: ص ٤٣-٤٤.

(٢) «تفسير الرازي»: (١/ ٢١٢).

«لا إِله»، وإثباتٌ: «إِلَّا اللهُ» والنَّفيُ حاصلٌ في ﴿إِيَّاكَ﴾ أَي لا سواكَ، والإِثباتُ أَيضًا فيها وفي ﴿نَعْبُدُ﴾؛ فالمعنىٰ أَنَّنا نتبرأُ من عبادةِ غيركَ - سبحانكَ - ونفردكَ أَنت ربنا بالعبادةِ.

ثانيًا: الإِتيانُ بقولِهِ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعدَ قولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فيهِ إِشارةٌ إِلىٰ أَنَّهُ لا ينبغي أَنْ يتوكلَ إِلَّا علىٰ مَنْ يستحقُّ العبادةَ؛ لأَنَّ غيرَهُ ليسَ بيدِهِ الأَمرُ[١].

ثالثًا: أَنَّ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لم تأْتِ علىٰ صيغةِ قصرٍ، بخلافِ العبادةِ؛ لأَنَّ الحمدَ يمكنُ أَن يكونَ لغيرِ اللهِ، بينما لا تكونُ العبادةُ لغيرِهِ سبحانه وتعالى[٢]؛ فقد يحمد المرء غير الله، لكنه لا يجوز له أن يعبد غيره سبحانه وتعالى.

رابعًا: أَنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قد قدَّمَ الحمدَ والثَّناءَ علىٰ الدُّعاءِ؛ لأَنَّ السُّنَّةَ في الدُّعاءِ، وشأْنَ الطلبِ أَن يأْتي بعدَ المدحِ، وذلكَ أَقربُ للإِجابةِ، وكذلك قدَّمَ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ علىٰ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ لأَنَّ رحمةَ اللهِ سبقتْ غضبَهُ، وكذلك قدَّمَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأَنَّ تقديمَ الوسيلةِ قبلَ طلبِ الحاجةِ[٣]، وهذا من براعةِ النَّظمِ القرآني في سورةِ الفاتحةِ إِجمالًا.

---

(١) «أضواء البيان»: (١/ ٧).

(٢) مضمون «تفسير الرازي»: (١/ ٢٤٧).

(٣) «تفسير ابن جُزَيّ» (١/ ٦٥).

خامسًا: تقديمُ «العبادةِ» علىٰ «الاستعانةِ» في الفاتحةِ؛ من بابِ تقديمِ الغاياتِ علىٰ الوسائلِ:

إِذ **العبادَةُ** غايةُ العبادِ الَّتي خلقوا لها، و«الاستعانةُ» وسيلةٌ إِليها.

لأَنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلقٌ بأُلوهيتهِ واسمِهِ «اللهُ» ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلقٌ بربوبيتِهِ واسمِهِ «الرَّبُّ» فقدَّمَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علىٰ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدَّمَ اسمَ «اللهِ» علىٰ «الرَّبِّ» في أَوَّلِ السُّورةِ[1]. ولأَنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم «الرَّب» فكانَ من الشَّطرِ الأَوَّلِ، الَّذي هو ثناءٌ علىٰ اللهِ تعالىٰ، لكونهِ أَولىٰ بهِ، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكانَ من الشَّطرِ الَّذي لهُ، وهو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلىٰ آخرِ السُّورَةِ.

ولأَنَّ «الاستعانةَ» جزءٌ من «العبادةِ» وليسَ العكسَ.

ولأَنَّ «العبادَةَ» لا تكونُ إِلَّا من مخلصٍ، و«الاستعانَةَ» تكونُ من مخلصٍ ومن غيرِ مخلصٍ. ولأَنَّ «العبادَةَ» حقُّهُ الَّذي أَوجبَهُ عليكَ، و«الاستعانَةَ» طلبُ العونِ على «العبادةِ». ولأَنَّ «العبادةَ» شكرُ نعمتهِ عليك، واللهُ يحبُّ أَن يشكرَ، والإِعانةُ فعلهُ بك وتوفيقهُ لك، فإِذا التزمت عبوديتهُ، ودخلت تحت رقِّها؛ أَعانك عليها، وكلَّما كانَ العبدُ أَتمَّ عبوديةً كانت الإِعانةُ من اللهِ لَهُ أَعظمَ.

(١) يُسمَّى هذا الأُسلوب في البلاغَةِ: ترتيب النشر على اللف.

والعبوديةُ محاطةٌ بإعانتين: إِعانةٌ قبلها على التزامها والقيام بها، وإِعانةٌ بعدها علىٰ عبوديةٍ أُخرىٰ، وهكذا أَبدًا، حتَّىٰ يلقىٰ العبدُ رَبَّهُ.

سادسًا: لا تعارضَ بين أَن يستعينَ المرءُ باللهِ ﷻ ويستعين بغيرِه فيما يقدرُ عليهِ العبادُ؛ لأَنَّ (الاستعانةَ نوعانِ: استعانةُ تفويضٍ؛ بمعنىٰ أَنَّكَ تعتمدُ علىٰ اللهِ ﷻ وتتبرأُ من حولكَ وقوتكَ؛ وهذا خاصٌّ باللهِ ﷻ واستعانةٌ بمعنى المشاركةِ فيما تريدُ أَن تقومَ بِهِ؛ فهذِهِ جائزةٌ إِذا كان المستعانُ به حيًّا قادرًا على الإِعانةِ؛ لأَنَّهُ ليس عبادةً، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢])[1].

سابعًا: جاءَ ذكرُ «الاستعانةِ» مطلقًا، ولم يحدَّدْ علىٰ أَي شيءٍ نستعينُ؛ ليشملَ الاستعانةَ على العبادةِ، وأُمورِ الدُّنيا من طلبِ الرِّزقِ والمعيشةِ ونحوها، فيتسعُ المجالُ لكلِّ أَوجهِ الاستعانةِ في غيرِ ما حرَّمَ اللهُ علىٰ عبادِهِ.

ثامنًا: في الاستعانةِ باللهِ على النحو المذكورِ في الآيةِ الكريمةِ؛ تكريمٌ ورفعةٌ للمؤمنِ، وتثبيتٌ لعقيدتهِ (وما أَفادهُ الحصرُ من وجوبِ تخصيصِ الاستعانةِ باللهِ تعالىٰ وحدهُ فيما وراءَ ذلك؛ وهو روحُ الدِّينِ، وكمالُ التَّوحيدِ الخالصِ الَّذي يرفعُ نفوسَ معتقديهِ ويخلصها من رقِ الأَغيارِ، ويفكُ إِرادتهم من أَسرِ الرُّؤساءِ

(١) «تفسير العثيمين»: ص ١٤-١٥.

الرَّوحانيين، والشُّيوخِ الدَّجالين، فيكونُ المؤمنُ مع النَّاسِ حرًّا خالصًا وسيِّدًا كريمًا، ومع اللهِ عبدًا خاضعًا)[١].

وهذا فيما يخصُّ الإخلاصَ في الاستعانةِ، ولا يناقضُ الاستعانَةَ بغيرِ اللهِ فيما يقدرُ عليهِ العبادُ، مثلما تقدَّمَ.

تاسعًا: في شطرِ الآيةِ تحقيقٌ لقولِ: «لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ»؛ فإنَّ في الاستعانَةِ باللهِ تبرُّأً من الحولِ والقوَّةِ إلَّا منهُ ﷻ ومعناها لا تحولَ للعبدِ من حالٍ إلىٰ حالٍ، ولا قوَّةَ لهُ علىٰ ذلكَ إلَّا باللهِ، وهي كلمةٌ عظيمةٌ، وكنزٌ من كنوزُ الجنَّةِ.

كما قال ﷺ لأبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: «**أَلا أَدُلُّكَ علىٰ كلمَةٍ هيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لا حَولَ ولا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ**» [البخاري: ٦٣٨٤].

و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تحملُ المعنىٰ ذاتَهُ.



(١) «تفسير المنار»: (١/ ٥٠) بتصرف يسير.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ أي دُلَّنا، وأَرشِدْنا.

ومعاني الهدىٰ في القرآن تأْتي علىٰ معاني: الدِّينُ، والإِيمانُ، والتَّوحيدُ، والدَّعوةُ، والمعرفةُ، والاسترجاعُ، والسُّنَّةُ، والإِصلاحُ، والإِرشادُ، والإِلهامُ، والتَّوبةُ، والحُجَّةُ[1].

والهدايةُ ها هُنا في الفاتحةِ: الإِرشادُ والتَّوفيقُ[2].

وفي «الكليات»: (هداهُ إِلىٰ الطريقِ: إِذا أَعلمهُ أَنَّ الطريقَ في ناحيةِ كذا. وهداهُ للطريقِ: إِذا ذهبَ بِهِ إِلىٰ رأْسِ الطريقِ. وهداهُ الطريقَ: إِذا أَدخلهُ فيهِ وسارَ معهُ حتَّىٰ بلغا المقصدَ)[3].

وبعضُ العلماءِ يرونَ أَنَّ **هداهُ الطريقَ**؛ تشملُ الدَّلالةَ على الطريقِ، ثمَّ الدَّلالةَ علىٰ أَوجهِ الخيرِ داخلهُ، وتثبيتهُ عليهِ، مستدلين بأَنَّ الهدايةَ دونُ حروفِ الجرِّ، قد تستخدمُ لمعرفةِ الطريقِ أَيضًا، لقولِهِ تعالىٰ عن إِبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا أَباهُ الكافرَ:

﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٣].

---

(١) «الكليات؛ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية» لأيوب بن موسى الحسيني: (١/ ٩٥٤).

(٢) «تفسير ابن كثير»: (١/ ٥١).

(٣) «الكليات» لأيوب بن موسى الحسيني: (١/ ٩٥٣).

يقولُ د. فاضلُ السَّامرائيُّ: (معنىٰ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ عرفنا الطريق الحقِّ، وردنا إِليهِ ردًّا جميلًا؛ إِذا ما ضللنا أَو انحرفنا، وثبتنا على الهدىٰ، وزدنا هدىٰ)[١].

ويقولُ الشَّيخُ الشَّعراويُّ ﵀: (الهدايةُ نوعانِ: هدايةُ دلالةٍ، وهدايةُ معونةٍ؛ هدايةُ الدلالةِ هي للنَّاسِ جميعًا، وهدايةُ المعونةِ هي للمؤمنين فقط، المتبعين لمنهجِ اللهِ)[٢].

وأَمَّا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فقالَ أَبو جعفرُ بنُ جريرٍ: أَجمعتِ الأُمَّةُ من أَهلِ التَّأْويلِ جميعًا، علىٰ أَنَّ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هو الطريقُ الواضحُ، الَّذي لا اعوجاجَ فيهِ، ثمَّ اختلفتْ عباراتُ المفسرين من السَّلفِ والخلفِ في تفسيرِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ وإِنْ كانَ يرجعُ حاصلها إِلىٰ شيءٍ واحدٍ، وهو المتابعةُ للهِ وللرسُولِ[٣]، والطَّريق المستقيم معروف، وهو أَقصر الطرق للوصولِ إِلى الغايةِ (والعبد عاجز؛ فلا يليق بضعفه إِلا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾) كما قال النيسابوري[٤].

و﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ في اللُّغةِ الطَّريقُ المحسوسِ الَّذي يُمشىٰ (فيه) ثمَّ استعيرَ للطريقِ الَّذي يكونُ الإِنسانُ عليها من الخيرِ والشَّرِّ،

---

(١) «لمسات بيانية»: ص ٥٥.

(٢) «تفسير الشعراوي»: (١/ ٨٤).

(٣) «تفسير ابن كثير»: (١/ ٥١).

(٤) «تفسير النيسابوري»: (١/ ١١١).

ومعنى المستقيمِ القويمِ الَّذي لا عوجَ فيهِ[1]، يقولُ الطَّاهرُ بنُ عاشور: (والأَظهرُ عندي أَنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ المعارفُ الصَّالحات كلُّها، من اعتقادٍ وعملٍ، بأَن يوفقهم إِلى الحقِّ، والتَّمييزِ بينهُ وبينَ الضَّلالِ، وإِنَّ المرءَ بحاجةٍ إِلىٰ هذِهِ الهدايةِ في جميعِ شئونِهِ كلِّها؛ للوقايةِ من التَّقصيرِ فيهِ أَو الزَّيغِ عنهُ)[2].

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ معلومةٌ معالمَهُ، كما جاءَ في الحديثِ أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قالَ:

«ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الأَبوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعِي يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ؛ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ: الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[3].

---

(١) «تفسير ابن جُزَيّ»: (١/ ٦٦).

(٢) «التحرير والتنوير» (١/ ١٩١) باختصار.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٨٢) وتخريج «المشكاة» (١٩١).

❁ **وفي الآيةِ دلالاتٌ وإشاراتٌ عظيمةٌ:**

منها: أَنَّ طلبَ الهدايةِ لا بُدَّ أَنْ يكونَ دأْبَ المؤمنينَ.

(فإِنْ قيلَ: كيفَ يطلبُ المؤمنونَ الهُدىٰ، وهو حاصلٌ لهُم؟

فالجوابُ: إِنَّ ذلكَ طلبٌ للثباتِ عليهِ إِلى الموتِ، أَو الزِّيادَةِ منهُ؛ فإِنَّ الارتقاءَ في المقاماتِ لا نهايةَ لَهُ)[١].

ودعاءُ المؤمنينَ في الآيةِ، يتضمنُ سِمَاتٍ جامعةٍ لطريقهِم إِلى اللهِ ﷻ يقولُ ابنُ القيِّمِ ﵀: (ولا تكونُ الطَّريقُ صراطًا حتَّىٰ تتضمنَ خمسةَ أُمورٍ: الاستقامةُ، والإِيصالُ إِلى المقصودِ، والقُربُ، وسعتُهُ للمارينَ عليهِ، وتعيُّنهُ طريقًا للمقصودِ، ولا يخفىٰ تضمنُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لهذِهِ الأُمورِ الخمسةِ)[٢].

وكما تقدَّمَ في الآيةِ السَّابقةِ؛ فإِنَّ دعاءَ المؤمنينَ هُنا «جماعيٌّ» ويعني أَنَّهم يطلبونَ الدَّلالةَ على الطَّريقِ الصَّحيحِ، وتجنبِ السُّبلِ المحيطةِ بهِ، وذلك لا يخصُّ الفردَ وحدَهُ؛ فالأُمَّةُ كلُّها مدعوةٌ إِلىٰ سلوكِ هذا الصِّراطِ معًا.

وإِنَّ ما تتعرضُ إِليهِ من فتنٍ تَمسُّها جميعها، وتمسُّ مجتمعاتها المختلفةِ؛ يحتاجُ معهُ من الأُمَّةِ المسلمةِ إِلىٰ تلمسِ هذا الطَّريقِ، وطلبِ الهدايةِ إِليهِ بتوفيقٍ من ربِّها العزيزِ الحكيمِ، فكثيرٌ ممَّا

---

(١) «تفسير ابن جزي»: (١/ ٦٥).

(٢) «التفسير القيم»: (١/ ١٤).

تواجهُهُ، هو من قبيلِ النَّوازلِ الجامعةِ، الَّتي تحتاجُ إِلىٰ قراراتٍ جماعيَّةٍ، وسلوكٍ مجتمعيٍّ؛ فإِنَّ المؤمنَ لنْ يسيرَ في طريقِ الحقِّ والإِصلاحِ والنُّهوضِ وحدَهُ، ولنْ تتحققَ خيريَّةُ الأُمَّةِ بسلوكِ أَفرادها سبيلَ الخيرِ فرادىٰ في تشتتٍ وفرقةٍ، وكلَّما كانَتِ الحيرةُ شديدةً في مواجهةِ الواقعِ وتحدياتِهِ، وكانتِ الفتنُ متلاحقةً ومتعاقبةً وشاملةً؛ غدتِ الحاجةُ أَكثرَ إِلحاحًا إِلى الإِرشادِ والتَّوجيهِ، والتَّبصرَةِ بطريقِ الحقِّ، والثَّباتِ عليهِ.

- أَنَّ سِمَةَ هذا الطَّريقِ المرجوةِ هي الاستقامةُ، وهي (سلوكُ الصِّراطِ المستقيمِ، وهو الدِّينُ القيِّمُ من غيرِ تعريجٍ عنهُ يمنةً ويسرةً، ويشملُ ذلكَ فعلَ الطَّاعاتِ كلِّها، الظَّاهرةِ والباطنةِ، وتركَ المنهيَّاتِ كلِّها، الظَّاهرةِ والباطنةِ)[1].

- إِنَّها سمَةُ الوضوحِ، والسَّيرِ بلا انعطافاتٍ أَو تباطؤٍ أَو تململ.

يقولُ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت].

وروي أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قرأَها فقالَ: «**قَدْ قَالَ النَّاسُ، ثُمَّ كَفَرَ أَكْثَرهُمْ، فَمَنْ مَاتَ عَلَيْهَا؛ فَهُوَ مِمَّنْ اسْتَقَامَ**»[2].

(١) «مختصر جامع العلوم والحكم» لابن رجب: ص ١٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٥٠) وضعفه الألباني.

وروي أَنَّ عمرَ بن الخطَّابِ ﵁ تلاها على المنبرِ، ثمَّ قالَ:

(استقاموا للهِ بطاعَةِ اللهِ، ولم يروغوا روغانَ الثعلبِ)[١].

-أَنَّ من سمتِهِ - أَيضًا - الاتِّساعُ.

«روى الحاكمُ وصحَّحهُ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ؛ أَنَّهُ قال:

(هو دينُ الإِسلامِ، وهو أَوْسَعُ ممَّا بينَ السَّماءِ والأَرضِ)[٢].

وفي اللَّغةِ يمتازُ الصِّراطُ بالاتِّساعِ كذلكَ، وهذا الاتِّساعُ هو اتِّساعُ هذِهِ الشَّريعَةِ ويُسْرُها، وهو التَّكليفُ الَّذي يُلبِّي حاجياتِ النَّاسِ، ويتعاملُ مع متغيراتِ الأَحوالِ وطوارئها، وهكذا يتضحُ من الفقهِ، والتَّعاملِ الاجتهاديِّ المَرِنِ مع المتغيراتِ والنوازلِ والأَحداثِ، وهي طَبيعةُ هذا الدِّينُ الَّذي جاءَ ليبقىٰ؛ لما فيهِ من موافقةِ الفطرةِ، ويُسرِ شريعتِهِ ووسطيتِهِ، وهذا شأْنَهُ أَنْ يكونَ متسعًا فسيحًا، لا كما يتصوَّرهُ المغرضونَ المشككونَ في سماحَةِ هذا الدِّينِ، وواقعيتِهِ، ووسطيتِهِ، وهو هكذا جاءَ ليبقىٰ مستوعبًا كافةَ الحضاراتِ، والأَزمانِ، والأَماكنِ، فبوسعِهِ احتضانُ كافةِ الشُّعوبِ والأَعراقِ والقبائلِ.

- أَنَّ الإِيمانَ والتزامَ طريقِ الاستقامةِ، مثلما يؤكدُ ويحضُّ عليهِ هذا الدُّعاءُ؛ يحققُ الخيرَ والصَّلاحَ للمؤمنِ في دنياهُ وأُخراهُ.

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٦٠١) وإسناده ضعيف.

(٢) «فتح القدير» للشوكاني: (١/ ٢٨).

مثلما قالَ الرَّسُولُ ﷺ لمَّا سأَلَهُ سفيانُ بنُ عبدِ اللهِ رضي الله عنه قائلًا: يا رسولَ اللهِ! قلْ لي في الإِسلامِ قولًا لا أَسأَلُ عنهُ أَحدًا غيركَ، قالَ: «**قُلْ: آمَنْتُ باللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**» [مسلم: ٣٨].

والَّذينَ يلتزمونَ السَّيرَ في «الصِّراطِ المستقيمِ» في الدُّنيا، يعبرونَ «الصِّراطَ» المنصوبَ فوقَ جهنَّمَ إِلى الجنَّةِ في الآخرةِ.

– إِنَّ هذا الاتِّفاقَ في اللَّفظِ، والاستقامةِ والامتدادِ العابرِ لحدودِ الحياةِ والمماتِ؛ يمنحُ السَّائرينَ هذا الشُّعورَ باتصالِ الصِّراطِ، الَّذي يمتدُّ في الحياةِ حيثُ التَّكاليف، وحتَّى الجزاء في الآخرَةِ؛ (ففي اختيارِ لفظِ الصِّراطِ دونَ الطَّريقِ أَو السَّبيلِ تذكيرٌ للصِّراطِ الَّذي هو الجسرُ الممدودُ بينَ طرفي جهنَّمَ، سهَّلَ اللهُ تعالىٰ علينا عُبُورَهُ وورودَهُ)[١].

– في الآيةِ دلالةٌ بيِّنةٌ، علىٰ أَنَّ العبدَ لا بُدَّ أَنْ يتعلقَ دومًا بعطاءِ ربِّهِ في هدايتهِ وإِصلاحِهِ، وأَنَّهُ لا يستغني عن تثبيتِ اللهِ لهُ، والاستعانةِ بهِ في تحقيقِ صلاحِهِ وإِيمانِهِ، والاستقامةِ علىٰ ذلكَ طولَ طريقِهِ، واستشعارِ العجزِ هذا، فالانكسارُ بينَ يديهِ سبحانه وتعالى في طلبِ الهدايَةِ؛ هو من أَوضحِ معاني العبوديةِ للهِ عز وجل.

بينَ ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ وبينَ ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ و﴿ ٱهۡدِنَا﴾ توافقٌ، وترتيبٌ بديعٌ.

---

(١) «تفسير النيسابوري»: (١/ ١١٠).

(فالعبادةُ أَشدُّ مناسبةً لذكرِ الجزاءِ، والاستعانةُ أَقوى التئامًا بطلبِ الهدايةِ)[١]، وهذا من روعةِ النَّظمِ القرآنيِّ في سورَةِ الفاتحَةِ كذلك.

وفي الجملةِ؛ فإِنَّ طلبَ الهدايةِ قدْ وافقَ هذا التَّدفُّقَ الرَّقراقَ للآياتِ، وفي هذا التَّوقيتِ يأْتي الدُّعاءُ بالهدايةِ ممَّن أَقرَّ بكلِّ ما سبقَ من الآياتِ، وقدْ (تهيأَ لأَصحابِ هذِهِ المناجاةِ، أَن يسعوا إِلىٰ طلبِ حظوظهم الشَّريفةِ من الهدايةِ، بعدَ أَنْ حمَدوا اللهَ ووصفوهُ بصفاتِ الجلالَةِ. ثمَّ أَتبعوا ذلكَ بقولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ الَّذي هو واسطةٌ جامعٌ بينَ تمجيدِ اللهِ تعالىٰ وبينَ إِظهارِ العبوديَّةِ، وهي حظُّ العبدِ بأَنَّهُ عابدٌ ومستعينٌ، وأَنَّهُ قاصرُ ذلكَ علىٰ اللهِ تعالىٰ، فكان ذلك واسطةً بينَ الثَّناءِ وبينَ الطَّلبِ، حتَّىٰ إذا ظنوا بربِّهم الإِقبالَ عليهم ورجوا من فضلِهِ؛ أَفضوا إِلىٰ سؤالِ حظهِم فقالوا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فهو حظُّ الطَّالبينَ خاصةً لما ينفعهم في عاجلهم وآجلهم، فهذا هو التَّوجيهُ المناسبُ لكونِ الفاتحةِ بمنزلةِ الدِّيباجَةِ للكتابِ الَّذي أُنزلَ هدًى للنَّاسِ ورحمةً، فتتنزلُ هاتِهِ الجملةُ ممَّا قبلها منزلةً المقصدِ من الدِّيباجَةِ، أَو الموضوعِ من الخِطبَةِ)[٢].



(١) «روح المعاني» للألوسي: (١/ ٨٨).

(٢) «التحرير والتنوير»: (١/ ١٨٧).

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

قولُهُ تعالىٰ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ مفسرٌ للصِّراطِ المستقيمِ[1] ويعني طريقَ من أَنعمتَ عليهم بالهدايةِ إِلى الصِّراطِ المستقيمِ، وهُم الأَولياءُ والأَصفياءُ[2]؛ فامْنُنْ علينا كما مَنَنْتَ عليهم[3].

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (**هُمْ النَّبيونُ والصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصَّالحونَ؛ يقولُ اللهُ تعالىٰ:** ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ﴾ [النساء][4].

وتلك الرِّفقةُ، هي رفقةُ المنهجِ الواحدِ، والطَّريقِ المتَّسعِ لكلِّ الصَّالحينَ السَّالكينَ فيهِ من لدنِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتَّىٰ قيامِ السَّاعةِ، وهو الَّذي لا يحدُّهُ زمانٌ ولا مكانٌ معينانِ؛ بل هو ممتدٌّ بالسَّائرينَ فيهِ حتَّىٰ رفقةِ الجنَّةِ؛ (فيرجىٰ أَن يكونَ كذلك في الآخرَةِ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ

---

(١) «تفسير ابن كثير»: (١/ ٢٤).

(٢) «لطائف الإِشارات» للقشيري: (١/ ٥١).

(٣) «تفسير السمرقندي»: (١/ ١٨).

(٤) «تفسير ابن جُزَيّ»: (١/ ٦٦).

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء].)(١).

ثمَّ هيَ رفقةُ طريقٍ لا يتسعُ للمخالفينَ في العقيدةِ والمسارِ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فبينهم وبينَ أهلِ الإنعامِ سدودٌ منيعةٌ، ومفاصلةٌ صارمةٌ، فلا يكتفي الدُّعاءُ بذكرِ طريقِ الصَّالحينَ، وإنَّما يقررُ صفةَ الطَّريقِ الفسيحِ الَّذي لا يتسعُ للمعاندينَ المكابرينَ، ولا الضَّالينَ الفاسدينَ.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فالمغضوبُ عليهم، هُم مَنْ عرفوا الحقَّ ولم يعملُوا بهِ؛ من أَهلِ الكُفْرِ. والضَّالونَ هُم من جهلُوا الحقَّ فلم يعملُوا بهِ من أَهلِ الكُفْرِ.

يقولُ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (انقسمَ النَّاسَ بحسبِ معرفةِ الحقِّ والعملِ بهِ إلىٰ هذهِ الأَقسامِ الثَّلاثةِ؛ لأَنَّ العبدَ إِمَّا أَنْ يكونَ عالمًا بالحقِّ أَو جاهلًا بهِ، والعالمُ بالحقِّ إِمَّا أَنْ يكونَ عاملًا بموجبهِ أَو مخالفًا لهُ، فهذِهِ أَقسامُ المكلفينَ لا يخرجونَ عنها البتَّةَ، فالعالمُ بالحقِّ العاملُ بهِ هو المُنْعَمُ عليهِ، والعالمُ بهِ المتبعُ هواهُ هو المغضوبُ عليهِ، والجاهلُ بالحقِّ هو الضَّالُّ)(٢).

وقد جاءَ هذا التَّحذيرُ الدَّقيقُ، من سلوكِ هذينِ المسارينِ

(١) «تفسير النيسابوري»: (١/ ١١١).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم مختصرًا: (١/ ١٩).

المعوجينِ، وجاءَ الدُّعاءُ بتجنبهما إِمعانًا في التَّوكيدِ علىٰ وضوحِ طريقِ المؤمنينَ، وعدمِ تقاطعهِ معَ أَهلِ الباطلِ في أَيِّ نقطَةٍ، وشملَ التَّحذيرَ والدُّعاءَ بتجنبِ طريقِ المغضوبِ عليهم والضَّالينَ، الَّذينَ هُم كذلكَ، عندَ كثيرٍ من المفسرينَ؛ اليهودُ والنَّصارىٰ، على التَّرتيبِ، لقولِهِ ﷺ: «**فإِنَّ اليَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وإِنَّ النَّصَارَىٰ ضُلَّالٌ**»[١].

والواقعُ أَنَّ ما أَلَمَّ بالأُمَّةِ الإِسلاميَّةِ من تراجعٍ وانتكاساتٍ في العصورِ الماضيةِ؛ هو من تقليدِ ومحاكاةِ اليهودِ: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ والنَّصارىٰ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ ورغمَ أَنَّ سورةَ الفاتحَةِ يتلوها المسلمُ في صلواتِهِ تسعةَ عشرَ مرةً على الأَقلِ يوميًا؛ إِلَّا أَنَّ ما أَصابَ الأُمَّةَ الإِسلاميَّةَ من وهَنٍ ومذلَّةٍ، يُبرهنُ علىٰ أَنَّ هذا التَّحذيرَ لَمْ يلقَ حقَّهُ من الاهتمامِ، لدىٰ كثيرٍ من قُراءِ الفاتحةِ.

واللافتُ أَنَّ التَّحذيرَ جاءَ مضاعفًا، بتبيانِ سبيلِ الكافرينَ بعدَ تبيانِ طريقِ الحقِّ، ثمَّ بالنفي بـ «غيرِ» «ولا» بما لا يحملُ أَي التباسٍ، وحيثُ دخلتْ «لا» في قولِهِ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لِئَلَّا يتوهَمَ أَنَّ الضَّالينَ عطفٌ علىٰ قولِهِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾»[٢].

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي» (٦/ ٤٥٤) وكذلك «تخريج الطحاوية» (٨١١).

(٢) «الهداية إِلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه» لمكي القيسي القرطبي (١/ ٢٥٤).

❁ **ومن بديعِ الآيةِ الكريمةِ:**

أَنَّها وضحتْ أَنَّ طريقَ الحقِّ واحدٌ، وطُرُقُ الباطلِ متعددةٌ؛ لأَنَّ أَهلَ الحقِّ هُم مَنْ يجمعونَ بينَ العلمِ والعملِ، ومَنْ يفقدُ الأَوَّلَ كانَ من الضَّالينَ، ومَنْ يفقدُ الثَّاني كانَ من المغضوبِ عليهم، ومَنْ فقدَ الاثنينِ كانَ منهما معًا، والآيةُ لمْ تُسمِّ الطَّريقَ الَّذي يسلكُهُ غيرُ المؤمنينَ، فهمْ يسلكونَ طُرقًا شتَّى معوجةً وضيقةً، واستثنتهُمْ من سلوكِ الصِّراطِ المستقيمِ.

ورغمَ أَنَّ الثَّابتَ أَنَّ اليهودَ مغضوبٌ عليهم، والنَّصارىٰ ضُلَّالٌ؛ فإِنَّ المعنىٰ هنا اتَّسعَ لكلِّ من شاكلهُم أَو تشابهَ معهم، وهذا منهجٌ قرآنيٌّ في وضعِ القواعدِ، وتحديدِ الطَّريقِ الصَّحيحِ والمعوجةِ، دونما تسميةٍ؛ ليتسعَ المعنىٰ لكلِّ موافقٍ لسلوكِ هذا الطَّريقِ أَو ذاكَ.

قالَ اللهُ: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ ولمْ يقلْ: «تُنْعِمُ»؛ لأَنَّ الفعلَ الماضي يضاعفُ أَعدادَ المنعمِ عليهم، من لدنْ آدمَ إِلىٰ يومِ القيامَةِ، ممَّن كتبهُمُ اللهُ مُنعمًا عليهم، أَمَّا الحاضرُ فيقتصرُ علىٰ وقتهِ، فيستثني زمرةَ الأَنبياءِ والصَّالحينَ علىٰ مرِّ العصورِ، و«الدُّعاءُ كلَّما كانَ أَعمَّ، كانَ للإِجابةِ أَفضلَ»[1]، وهو كذلكَ يؤكدُ علىٰ وحدَةِ المنهجِ والصِّراطِ، الممتدةِ عبرَ الزَّمنِ، وعن الأُخوةِ الإِيمانيَّةِ الَّتي يصطفُّ

(١) «تفسير الرازي»: (١/ ٢٥٧).

بها أَهلُ الإِيمانِ علىٰ مرِّ العصورِ في هذا الصِّراطِ. وذكرَ أَهلَ الباطل بالاسمِ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ ولمْ يذكُرهم بالفعل؛ لأَنَّ الاسمَ يفيدُ الشُّمولَ والثَّباتَ، بخلافِ الفعلِ الَّذي يفيدُ التَّجددَ والانقطاعَ، ليشملَ ذلك كلَّ المغضوبِ عليهم والضَّالينَ، علىٰ مرِّ العصورِ، فلمْ يقلْ: «غضبَ اللهُ عليهم»، أَو «ضلوا».

ولمْ يقلْ في الإِنعامِ: «المنعَم عليهم»؛ لأَنَّهُ أَرادَ تكريمهم فالتعبيرُ بـ «المنعَمِ عليهم» لا يبيِّنُ المُنعِمَ الَّذي أَنعمَ عليهم، والنِّعمةُ إِنَّما تقدرُ بقدرِ المنعِمِ، وهو اللهُ ﷻ وفي المقابلِ فبناءُ المغضوبِ عليهم للمفعولِ؛ تحقيرٌ وإِذلالٌ لهُم.

ولمْ يقلِ اللهُ: «مَنْ غَضِبَ اللهُ عليهم»؛ ليشملَ كلَّ غاضبٍ من الملائكةِ والمؤمنينَ وحتَّىٰ أَولياؤهم، الَّذين يتبرءونَ منهم في الآخرةِ، وكذلكَ «لمْ يُسَمِّ فاعلهُ علىٰ وجهِ التَّأَدبِ: كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾[1][2].

قدَّمَ اللهُ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ علىٰ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأَنَّهم الأَسبقُ في المعاصي، وأَوَّلُ معصيةٍ كانتْ من إِبليسَ اللعينِ الَّذي عرفَ الحقَّ وتكبرَ؛ فغضبَ اللهُ عليهِ، وتابعهُ اليهودُ، وغيرهم.

---

(١) «سورة الشعراء»: ٨٠.

(٢) «تفسير ابن جُزَيّ»: (١/ ٦٦).

وفي مقامِ الدُّعاءِ والتَّذللِ لطلبِ الإحسانِ، لا يناسبُ مواجهتَهُ بوصفِ الانتقامِ؛ ففي مقامِ طلبِ الهدايةِ لا يقالُ: «غيرَ مَنْ غضبتَ عليهم» ونحوه[١].

ويلاحظُ أَنَّ الصِّراطَ قد نُسِبَ إِلىٰ منهجِ اللهِ مرَّةً، وإِلىٰ سيرَةِ السَّالكين مرَّةً: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ليُعلمَ أَنَّ سبيلَ الهُدىٰ والصَّلاحِ يتحقَّقُ لسالكيهِ بالتزامِ الشَّريعةِ، والاقتداءِ بأَهلِ الصَّلاحِ.

إِنَّ المنهجَ الإِسلاميَّ يزاوجُ بينَ العلمِ والعمل، والنَّظريةِ والتَّطبيقِ، والمنهاجِ وسيرِ سالكيهِ، ولعلَّ الفاتحةِ الَّتي يُسْتَفتَحُ بها هذا الكتابُ العظيمُ، تُبينُ إِجمالًا ما سيتلوها من سورٍ وآياتٍ، تتضمنُ الأَحكامَ والشَّرائعَ، مثلما تتضمنُ قصصَ الأَنبياءِ وسيرَ أَهلِ الحقِّ، وأَهلِ الباطلِ كذلك؛ ليكتملَ وضوحُ المنهجِ ما بينَ النُّصوصِ والواقعِ، والنموذجِ والتَّطبيقِ.

ويأْتي ختامُ السُّورَةِ بدعوةٍ للمؤمنينَ لربِّهم، أَنَّ يهديهُم طريقَ هؤلاءِ السَّالكينَ ومنهاجهم، ويجُنِّبهمْ مزالقَ أَهلِ الزَّيغِ والضَّلالِ، سائلينَ اللهَ ﷻ أَنْ يَضمهُمْ في الصِّراطِ، معَ الأَنبياءِ، والصِّدِّيقينَ، والشُّهداءِ، والصَّالحينَ، يتلُو إِمامُهُم الفاتحةَ؛ فيُردِّدُ مَنْ خلفهُم

(١) باختصار وتصرف من «لمسات بيانية»: ص ٦٢-٦٧.

المصلونَ في جمعٍ، وجماعاتٍ، تُجَسِّدُ وحدةَ المسلمينَ المنتظمينَ علىٰ صراطٍ واحدٍ: «آمين» وقد أُمروا «بالتأْمينِ عندَ خاتمَةِ الفاتحَةِ للدُّعاءِ الَّذي فيها (أَي): اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ»[1].

وهيَ مكرمَةٌ لهذِهِ الأُمَّةِ؛ لَمْ ترقَ أُمَّةٌ إِليها، يَقُولُ ﷺ:

«مَا حَسَدَتْكُمُ اليَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَىٰ قَولِ: آمينَ»[2].

إِذْ هيَ طلبُ استجابَةٍ لدُعاءٍ من أَعظمِ الأَدعيَةِ، واصطفافٌ إِيمانيٌّ لجماهيرِ المؤمنينَ علىٰ مَرِّ العُصورِ.



(١) «تفسير ابن جُزَيّ»: ص٦٦-٦٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه وأحمد، وصححه الألباني في «التعليقات الرضية» (١/ ٢٩٤) وقال: إِسناده صحيح رجاله رجال مسلم.

الخاتمة

وبعدُ: فسورةُ الفاتحَةِ - بما اتَّضحَ آنفًا - منزَّلةٌ من القرآنِ منزلةَ الدِّيباجَةِ للكتابِ، أَو المقدمةِ للخطبَةِ، وهو أَعْوَنُ لفهْمِ ما يتلُوها من معانٍ وأَحكامٍ وقصصٍ، وما إِلىٰ ذلك.

وقدْ رسمَ أُسلوبُ الفاتحةِ للمُنشئينَ[1] ثلاثَ قواعدٍ للمقدمَةِ:

الأُولىٰ: إِيجازُ المقدمةِ؛ لئلَّا تملَّ نفوسُ السَّامعينَ بطولِ انتظارِ المقصودِ، وهو ظاهرٌ في الفاتحَةِ، وليكونَ سنةً للخطباءِ؛ فلا يطيلوا المقدمةَ، ومن هذا يظهرُ وجهُ وضعها قبل السُّورِ الطُّوالِ، معَ أَنَّها سورةٌ قصيرةٌ.

الثَّانيةُ: أَنْ تشيرَ إِلى الغرضِ المقصودِ، وهو ما يُسمَّىٰ براعَةَ الاستهلالِ؛ لأَنَّ ذلكَ يهيئُ السَّامعينَ لسماعِ تفصيلِ ما سيردُ عليهم، فيتأَهبوا لتلقيهِ، وفيهِ سُنَّةٌ للخطباءِ ليحيطوا بأَغراضِ كلامهم.

الثَّالثةُ: أَنْ تكونَ المقدمةُ من جوامعِ الكلمِ، وقدْ بينَ ذلكَ علماءُ البيانِ عندَ ذكرِهم المواضعَ الَّتي ينبغي للمتكلمِ أَنْ يتأَنَّقَ فيها (و) أَنْ تُفتتحَ بحمدِ اللهِ[2]. وهي بحقٍّ تجمعُ كلَّ هذا وتتضمنُهُ.

---

(١) من الكتاب والخطباء ونحوهم، من أهل الإنشاء والتعبير والآداب.

(٢) «التحرير والتنوير»: (١/ ١٥٣) بتصرف يسير.

وفي الختام؛ إنَّ ما حوتْهُ هذِهِ الأوراقُ السَّالفاتُ؛ هو بالكادِ ما قدْ رجا صاحبُها أَنْ يكونَ ميسورًا، لمن أرادَ تدبُّرَ بعضَ معاني هذهِ السُّورةِ العظيمةِ، وما لم تحوه إنَّما هو أَضعافُ أَضعافُ ذلك؛ فإنَّ هذا القرآنَ، وتلكَ فاتحتُهُ وأُمُّ كتابِهِ، كما يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله: «لا تفنىٰ عجائبُهُ، ولا تقلعُ سحائبُهُ، ولا تنقضي آياتُهُ، ولا تختلفُ دلالاتُهُ، كلَّما ازدادتِ البصائرُ فيهِ تأَمُّلًا وتفكيرًا، زادَها هدايةً وتبصيرًا، وكلَّما بَجَّستْ معينهُ فجَّرَ لها ينابيعَ الحكمةِ تفجيرًا، فهو نورُ البصائرِ من عماها، وشفاءُ الصُّدورِ من أَدوائها وجواها، وحياةُ القلوبِ، ولذةُ النُّفوسِ، ورياضُ القلوبِ، وحادي الأَرواحِ إلىٰ بلادِ الأَفراحِ»[1]، وهذا المرجو؛ وهو أَنْ يقودَ تاليها ومتدبرها إلىٰ صراطِ المؤمنينَ الصَّالحينَ، ومرافقتهم إلى الجنَّةِ.

ومن الجديرِ ذكرهُ هُنا، أَنَّ تدبرَ سورةِ الفاتحةِ لا يعني استحضارَ كلِّ هذهِ المعاني، أَثناءَ التِّلاوةِ في الصَّلاةِ وغيرها، إنَّما غايةُ المرءِ في ذلك أَنْ يتدبرَ فيمتلئَ قلبهُ إيمانًا ويقينًا وتوكلًا وعبادةً، وتعظيمًا للهِ عز وجل وحبًّا لأَوليائهِ، وبُغضًا لأَعدائهِ، أَمَّا في صلاتهِ، فحسبه أَنْ يفهمَ ما تعنيهُ إجمالًا، كما قالَ محمَّد رشيد رضا: «إذا قرأْتَ البسملَةَ فاستحضرْ من معناها: إنِّني أُصلِّي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ وللهِ الَّذي شرعَ الصَّلاةَ وأَقدرني عليها.

(١) «تهذيب مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ١٥).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ذي الرَّحمةِ العامَّةِ الَّتي وسعتْ كلَّ شيءٍ، والخاصةِ بمَن شاءَ من عبادهِ المخلصينَ.

وإذا قلتْ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فاستحضرْ من معناها: أَنَّ كلَّ ثناءٍ جميلٍ بالحقِّ؛ فهو للهِ تعالىٰ استحقاقًا وفعلًا؛ من حيثُ إِنَّهُ الرَّبُّ خالقُ العالمينَ، ومدبرُ جميعِ أُمورهم: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في نفسِهِ: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بخلقِهِ.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: ذي الملكِ والتَّصرفِ دونَ غيرِهِ، يومَ محاسبَةِ الخلقِ، ومجازاتِهِم بأَعمالِهِم، فلا يُرجىٰ غيرُهُ.

وإذا قلتَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: فتذكرْ أَنَّكَ تُخاطبُ هذا الرَّبَّ العظيمَ كفاحًا، بما يجبُ أَنْ تكونَ صادقًا فيهِ.

ومعناهُ: نعبدكَ وحدكَ دونَ سواكَ، بدعائكَ والتَّوجهِ إِليك.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: نطلبُ معونتكَ وحدكَ علىٰ عبادتكَ، وعلىٰ جميعِ شئوننا، بالعلم بما أَعطيتنا من الأَسبابِ، وبالتوكلِ عليكَ وحدكَ عندَ العجزِ عنها.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: دُلَّنا وأَوصلنا بتوفيقكَ ومعونتكَ، إِلىٰ طريقِ الحقِّ في العلمِ والعملِ، الَّذي لا عوجَ فيهِ ولا زللَ.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾: بالإيمانِ الصَّحيحِ والعملِ الصَّالحِ

وثمرتهما، وهي سعادةُ الدَّارينِ، وتذكرُ إِجمالًا أَولئكَ المُنعمِ عليهم: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وأَنَّ حظكَ من هذِهِ الهدايةِ لصِراطهم، إِنَّما يكونُ بالتأَسي والاقتداءِ بهم في الدُّنيا، ومرافقتهم في الآخرَةِ: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ فضلًا وإِحسانًا منكَ.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بإِيثارِهِم الباطلَ على الحقِّ، وترجيحهم الشَّرَّ على الخيرِ.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن طريقِ الحقِّ والخيرِ بجهلهِم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وأَنصحُ لكَ أَيُّها التَّالي للقرآنِ في الصَّلاةِ وفي غيرِ الصَّلاةِ، أَنْ تقرأَهُ علىٰ مُكْثٍ وتمهُّلٍ، بخشوعٍ وتدبرٍ، وأَنْ تقفَ علىٰ رءوسِ الآياتِ، وتعطي القراءَةَ حقَّها من التَّجويدِ والنَّغماتِ، معَ اجتنابِ التَّكلفِ والتَّطريبِ، واتقاءِ الاشتغالِ بالأَلفاظِ عن المعاني، فإِنَّ قراءَةَ آيةٍ واحدةٍ معَ التَّدبرِ والخشوعِ؛ خيرٌ لكَ من قراءَةِ ختمَةٍ معَ الغفلَةِ، ومن المجرباتِ: أَنَّ تغميضَ العينينِ في الصَّلاةِ يثيرُ الخواطرَ، ولذلكَ كانَ مكروهًا، وأَنَّ رفعَ الصَّوتِ المعتدلِ في الصَّلاةِ الجهريةِ ولا سيما صلاةِ الليلِ؛ يطردُ الغفلةَ، ويوقظُ راقدَ الخشيةِ، وإِعطاءَ كلِّ أُسلوبٍ حقَّهُ من الأَداءِ والصَّوتِ؛ يعينُ على

الفهمِ، ويستفيضُ ما غاضَ بطولِ الغفلةِ، من شآبيبِ الدَّمعِ»[١].

وفي كلمَةٍ؛ «سورةَ الفاتحَةِ» الَّتي تتكونُ من خمسةٍ وعشرينَ كلمةٍ[٢] فقط؛ قدْ حوتْ كلَّ هذِهِ المعاني السَّالفاتِ، بقيمها وأُصولها الواضحةِ، في إِعجازٍ فريدٍ ودقةٍ عظيمةٍ، من غيرِ أَنْ تَضُمَّ غرائبَ اللُّغةِ وموحِشها، بما لا يعجزُ الصَّغيرُ والكبيرُ عن فهمِ معانيها الأَوليَّةِ، ويستقي كلُّ صاحبِ قدرٍ من العلمِ، قليلٌ أَو كثيرٌ؛ ما ينيرُ لَهُ طريقَهُ، ويخطُّ لَهُ صراطًا مستقيمًا إِلى الجنَّةِ.

فاللَّهُمَّ! اجعلنا من أَهلِ القُرآنِ، وممَّنِ استجبتْ لهُمْ دعاءَهُمْ بالفاتحَةِ.

وصلِّ اللَّهُمَّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أَجمعين.

كتبهُ

أَمير سعيد

٢ رمضان ١٤٤٢هـ



(١) «تفسير المنار»: (١/ ٨٦-٨٧).

(٢) أو (٢٩) كلمة، لدى من يعتبرون أن البسملة آية من الفاتحة.

فِهرس الموضوعات

تمَّ بحمدِ الله تعالى وتوفيقه